

دُموعُ النّوَارس

أحمد ماضي

دُموعُ النَّوَارِس

رواية

أحمد ماضي

مفتتح (١)

إنهم شعراء

ينـزفون.. الحب.. والصمت

ينـزفون.. الألم.. والضياع..

وهات يا حزن..

هات يا حزن..

هات يا حزن..

مفتتح (٢)

سيداتي.. آنساتي.. سادتي:
عمتم مساء
وإذا كنتم بصبحٍ..
(سيداتي.. آنساتي.. سادتي)..
عمتم صباحا:
قد يكون الكأس شكلاً قد تغير
إنما الشيء الأكيد
أن ما نشربه الآن
تماما:
هو ما قد كان في الماضي البعيد
سيداتي.. آنساتي.. سادتي:
عمتم مساء وصباحا
واستلابا واجتياحا
وانحطاطًا وجراحا
والتياعا ونواحا
إنه التاريخ مكرورا
ولا شيء جديد...

الشاعر الكبير
محمد محمد الشهاوي

(١)

بدد الرنين المتواصل صمت الليل حين انتزعتُ نفسي من حافة النوم التي كدت أن أولج منها بعد دقائق إلى عمق النوم نفسه.. قمت فالتقطت السماعة..

ووجدته هو..

الشاعر سعيد عبد الباري..

ظننت أنه سيدخل بي في حديث من المتوقع أن نخوضـه في أول لقاء بعد وليمته العامرة وندوته المبهجة..

لقد كانت وليمته تجمعا أدبيا ولا يعدو أن يكون أكثر مـن ذلك، فالشاعر عندما يدعو الشعراء إلى منزله فلـن يكـون همهم تناول أطايب الطعام قدر اهتمـامهم بتنـاول أطايـب القصائد..

في لمحة سريعة إلى ساعة الحائط اكتشـفت مـن هـذا التوقيت المتأخر أن سعيدا يعاني من مشكلة ما تؤرقه..

ورحت أتذكر صورته في أول عهده بارتيـاد نـدوتي.. وكيف كنت أتأمله ولدي إحساس غريـب أن هـذا الشـاب الصغير يحمل هموما ربما أتلمسها اليوم في شعره.. إذا نطق شعرا، أو في قصصه.. إذا ألقى قصة قصيرة..

يومها - وكعادتي - رحت أدعو الضيوف الجـدد مـن الشعراء ليقدموا أنفسهم.. وأعمالهم.

قام سعيد فأثنى على هذا التجمع وأثنـى علـى صـديقه الشاعر فهد السحار الذي دعاه ليحضر لقاء هذا الشهر..

وقبل أن يلقي قصيدته.. أوقفته بإشارة من يدي:

الاسم وحده لا يكفي.. قدم نفسك أكثر..

وبهدوء واضح راح يقدم نفسه:

ليسانس آداب.. سأنهي الخدمة العسكرية قريبا.. حيـاتي خالية من أي شيء ما عدا الشعر.. الشعر هو الشيء الوحيد الذي يؤنسني.. لم أنشر قصيدة واحدة حتى الآن.. أتابع قدر استطاعتي عددا من الشعراء الذين أحبهم.. لسـت متحمسـا لجيلي من الشباب الشعراء الذين شطحوا في الحداثة... قبـل أن يثبتوا ذواتهم في الشعر العمودي أو شعر التفعيلة..

ثم راح يلقي قصيدتة..

*****

كانت قصيدة من الشعر الرومانسي الناعم الذي لا يخلـو أحيانًا من المباشرة والوضوح غير الفـج.. قوامهـا لهجـة مريرة من العتاب والسخط يوجهها لفتاة ناعتًا شخصها بكـل المفردات القاسية التي يمكنك أن توجهها لخـائن أو منـافق وليس لحبيبة.. كان يقرأ قصيدته بنوع مـن الإغـراق فـي التعبير برأسه وكلتا يديه أما عيناه فظلتا مغمضـتين بطـول القصيدة.. ولأن هذا النوع من التبتل والخشوع يعتبره البعض استدعاء للانتباه لا لزوم له، فقد راحت ابتسـامات الغرابـة تلاحقه.. إلا أنه كان يملك أدواته التي يعـرف أنـه حتمـا سيشدهم بها رغم ما يعتمل في نفوسهم من تعجب قد يأخـذ بعض الوقت حتى يتحول إلى إعجاب..

وبعد أن انتهى من قصيدته عاد إلـى كرسـيه فـي أدب وتواضع فبادرته قائلاً:

- يا سعيد.. بنفس القدر الذي شكرنا به ليلى لأنها لـم تتزوج قيس ليمتعنا بشعر فيها.. فنحن نشـكر تلـك

الحبيبة التي عذبتك إلى هذه الدرجة لتمتعنا بهذه القصيدة..

وتحول جو الصالون إلى مرح خفف عن صاحبنا بعض الخجل الذي كان يلازمه..

كان بالصالون بعض الشاعرات لم تكن بينهن حنان الرفاعي.. فسألت زميلاتها:

- أين حنان يا أمينة.. أين حنان يا نيفين...؟

قالت أمينة:

- أنت تعلم أنها ما زالت في قفص الحريم.. لم يسمحوا لها بالخروج بعد..

قال لها وسام الزواوي:

- إذن فكيف خرجت يا أمينة.. وأنت لديك قفص مثله...؟

ردت بسرعة وبأسلوب ضاحك:

- حارسي على سفر.. وكان من السهل أن أقنع باقي الحراس أني مريضة.. وفي طريقي للطبيب..

سألها أحد الشعراء ضاحكًا:

- أين خطيبك...؟ أقصد: آخر واحد خطبك...؟ أراك كنت على وفاق معه.. وحضر معك هنا أكثر من مرة..[قلت لأمينة]..

ردت بسرعة:

- لقد طردته.. حفاظًا لي من الشلل.. كان يمثل دور المحب لي.. والمحب للشعر.. حتى عرفت أنه لا يعرف الفرق بين القصة والقصيدة.. فأعطيته دبلته..

*****

وبعد أن انتهى هذا الفاصل من الدردشة الذي يتم عفـوا وبلا سابق اتفاق بين فقرات التقديم.. أسرعت بتقديم شـاعر آخر..

وأثناء تقديم إحدى الفقرات دخلت حنان الرفاعي في هدوء شديد.. ذلك الهدوء الذي يلازمها في كل حركاتها وسكناتها..

لم تجد كرسيا خاليا إلا بجوار سعيد عبد الباري فجلسـت بجانبه وانهمكت بعد لحظات فـي الاسـتماع مثـل بـاقي الحضور..

انتهى الشاعر من قصيدته.. بادرتُ فرحبـتُ بحضـور الشاعرة حنان الرفاعي:

- نحن نرحب بالشاعرة حنان الرفاعي.. التي فاتها أن تسمع قصيدة شاعرنا وضيفنا الجديد سعيد عبد الباري..

التفتت حولها كأنها تبحث عن وجـه جديـد لا تعرفـه.. بادرتها..

- إنه الذي يجلس بجوارك..

علق أحدهم:

- هي التي جلست بجواره..

ابتسمتْ لهذا التعليق ثم بادرت فصافحت سـعيد.. الـذي فوجئ بيدها ممتدة فنهض قليلاً وهو يصافحها في خجل..

يبدو أنها راق لها أن تقرأ القصيدة إذ وجدتها تميل عليـه بحديث هامس.. ووجدته يفتح حافظة ويسلمها منهـا بعـض الأوراق..

وعندما نهضت حنان الرفاعي لتلقي قصيدتها.. كان سعيد يسلط كل حواسه عليها وهو يتابعها.. وبعد أن جلست مودعة

بالتصفيق.. ومع تصاعد التعليقات العفوية.. ظل سعيد يميـل على حنان متحدثًا إلى أن تبدأ الفقرة التالية..

وما إن فرغ كرسي على يمين حنان حتى نهض الشـاعر وسام الزواوي متخليا عن كرسيه ليجلس بجوارهـا.. وبعـد لحظات انهمك الاثنان في حديث متصل استدارت فيه حنـان بجسمها - وأعطت كل تركيزها - لوسام..

هناك شيئًا ما يربط بين حنان ووسام.. لعلـه الحـب أو الاستلطاف.. أو التوافق.. والتعاطف.. المهم.. أنـه شـيء جميل يلْقَى مباركة كل من حولهم.. ويلقى اهتمامها بالدرجة الأولى.. ومن المؤكد أن حنان عندما تستأذن مبكرا اليـوم - حتى تسارع بالدخول إلى قفص الحريم - سيعمد وسام إلـى الاستئذان هو الآخر حتى يقوم بمهمة توصيلها.. ولن يفعـل ذلك بأي نوع من الحرج أو التردد، بل سيؤدي مهمته علنًـا لأنها إن لم تكن قد أتت في حراسته؛ فالشـيء الطبيعـي أن تغادر في حراسته..وسيعلن الاثنـان بطريقتهمـا الضـاحكة اعتذارهما عن عدم إكمال الجلسة.. والسبب المعلن – طبعـا – هو الذي نعرفه..

(إنتوا عارفين بقَى.. قفص الحريم!!)

لا أدري كيف أتى سعيد بعنوان مكتبـي عنـدما جـاء لزيارتي..

- كنت في طريقي إلى وحدتي.. وأمامي عدة ساعات على انتهاء التصريح.. جال في خاطري أن أراك.. قلت لنفسي.. أمر عليك.. وأنا وحظي..

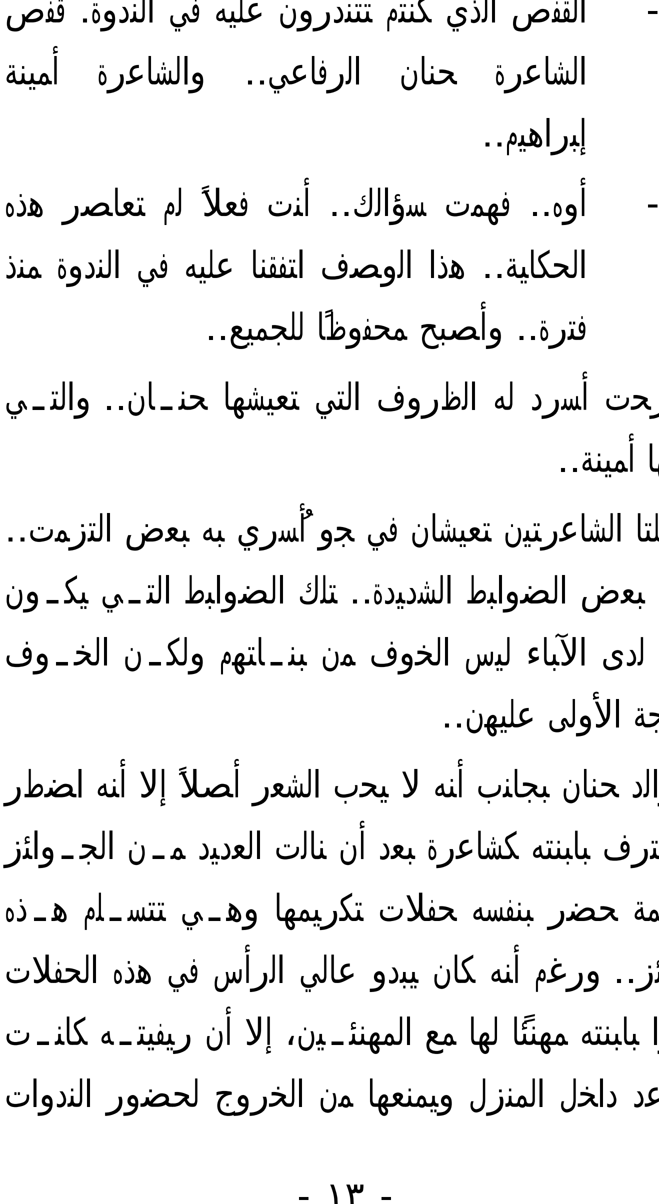
- الحقيقة هو حظ جميل.. بالنسبة لي..

لم يكن هناك سببا قويا يدفعه إلى زيارتي.. ولكنه كريفي لم يتسم بالعفوية فقد استطعت أن أضع يدي على الشيء الذي يشغله.. عندما سألني فجأة وعلى فمه ابتسامة:

- حتى الآن لم أجد تفسيرا لموضوع قفص الحريم.. ما هذا الموضوع...؟

فهمت أنه يحوم حـول شخصـية حنـان بشـيء مـن المراوغة.. فاستخدمت هذه المراوغة للحصول منه على قدر أكبر من التوضيح.

- قفص الحريم...؟ أي قفص...؟



- القفص الذي كنتم تتندرون عليه في الندوة. قفص الشاعرة حنان الرفاعي.. والشاعرة أمينة إبراهيم..
- أوه.. فهمت سؤالك.. أنت فعلاً لم تعاصر هذه الحكاية.. هذا الوصف اتفقنا عليه في الندوة منذ فترة.. وأصبح محفوظًا للجميع..

ورحت أسرد له الظروف التي تعيشها حنان.. والتي تعيشها أمينة..

فكلتا الشاعرتين تعيشان في جو أُسري به بعض التزمت.. أو قُل بعض الضوابط الشديدة.. تلك الضوابط التي يكون سرها لدى الآباء ليس الخوف من بناتهم ولكن الخوف بالدرجة الأولى عليهن..

فوالد حنان بجانب أنه لا يحب الشعر أصلاً إلا أنه اضطر أن يعترف بابنته كشاعرة بعد أن نالت العديد من الجوائز المتقدمة حضر بنفسه حفلات تكريمها وهي تتسلم هذه الجوائز.. ورغم أنه كان يبدو عالي الرأس في هذه الحفلات فخورا بابنته مهنئًا لها مع المهنئين، إلا أن ريفيته كانت تتصاعد داخل المنزل ويمنعها من الخروج لحضور الندوات

الشعرية.. مؤكدا أن هذه المقابلات لا تليق بفتـاة يمكـن أن يطمع في استغلالها بعض ذوي القلوب المريضة..

وكان هذا الموضوع سببا لنزاع دائـم بـين الأب والأم.. الأم التي تتحيز لموهبة ابنتها وتحاول أن تعطيها حقوقها في إدارة وتنمية هذه الموهبة بالتردد على المكتبات لشراء الكتب أو ارتياد قصر الثقافة وحضور الندوات فهي تثق في أخلاق ابنتها وتعرف جل أسرارها إذ هي تعاملها كصديقة قبـل أن تعاملها كابنة..

قالت له أن يتركها ترافقها في مشاويرها كأم تحب ابنتهـا وتصادقها وتحضر معها كل الدعوات الموجهة إليها..

قال لها:

- ما شاء ا .. ما شاء ا .. إذن فالمطلوب مني ألا أحمل هم البنت فقط.. بل أحمل هم البنت وأمها..

استنكرت الأم أن يعاملها زوجها كأنها فتـاة غيـر ناضـجة يخاف عليها الاحتكاك بالمجتمع.. وعندما أعلنت هذا الاسـتنكار قام الرجل بمواجهته بإعلان آخر وفر له عوامل تحقيقيه.. وهو أنه لا خروج نهائياّ لهما (الأم.. والابنة الشاعرة) إلا:

".. ورجلي على رجلكم.."

ولما طال غياب حنان عن الأصـدقاء والصـديقات لـم تحدثهم عما يدور في منزلها.. وكيف أنها تعيش في حصار مضروب حولها.. ولأنها رقيقة وصبورة فقد واجهـت هـذا السجن بتعبير ضاحك وهي أنها ترسل لهم قصـائدها مـن داخل قفص الحريم.. القفص الـذي دخلتـه هـي قسـرا لا برغبتها ولكن طلبا لرضا والدها.. وتنفيذًا لمطلبـه القاسـي الذي راح يكسر فيه الجسر الوحيد الذي يربطها بـالمجتمع.. جسر الشعر.. والأدب والفن..

وأصبح الوصف المتفق عليه في حالة حنان لمـن يسـأل عنها ولا يجدها هو:

- إنها في قفص الحريم..

وكان نفس الشيء ينطبق على أمينة التي تتفجـر شـعرا متحررا في وقار.. ثائرا في هدوء.. ساخنًا في غير مجلبـة للحريق.. ورغم هذه العصرية في التناول والتفكير إلا أنهـا ومع تطور ملكتها الشعرية راحت تصطدم بشـيء مخـالف تماما في منزلها.. وهو رأي والدها فيما تتجه إليه ابنته.. هذا الرأي الذي راح يدليه بشكل متصاعد أو يزداد تصاعده مـع

وضوح نضوج أنوثة ابنته وتعـديها مراحـل الصـبا إلـى المراهقة إلى النضج الذي يلفت نظر الرجال..

كان أخوها يراقب اتجاه أبيه في تهدئة السرعة التي تتجه بها ابنته إلى عالم الشعر والفن والأدب.. إلا أنـه وجـد أن أخته الشاعرة تمكنت من الحصول على مباركة أبيهـا فـي أغلب ما تهواه من مشاوير خروج لعقد الندوات الأدبية..

انزعج الأخ من المحادثات التليفونية التي تستغرق وقـت أخته والتي تنصرف إليها على حساب وقت الاستذكار، والتي لم يجد حوله تعليقًا من أهل المنزل أو تخوفًـا مـن مغبـة الإبحار في هذه المحادثات.. فتحدث مع أبيه أولاً ثم مع أمه وباقي أسرته في ضرورة إيقاف هذا المسلسل الذي لا يحـث عليه الدين بل إنه ينهي عنه..

فصوت المرأة عورة..

ومصافحة المرأة تأكيد لفضح هذه العـورة.. مـا بالـك بجلوس الشعراء والشاعرات متلاصقين في ندواتهم..

ثم ما بالك بنوع الشعر الذي يقال.. والذي يخاطـب فـي بعض مواضعه النوازع الجنسية لدى الرجل أو المرأة بشكل يكون فيه الرمز واضحا دون معاناة في تفسيره..

راح هذا الشقيق الملتحي يعمل على جلب موافقة أبيه لوضع الكوابح الملائمة في طريق أخته، حتى لا تسبب لها هذه السرعة حادثه يندمون عليها.. راح يفعل ذلك مستخدما عوامل الترهيب التي يحفظها عن ظهر قلب ثم أنهى معزوفته بقول يثير الألم:

- كيف أخطب في الناس ناهيا إياهم عن الأفعال السيئة ثم تأتي أختي بمثلها...؟ ألا يعني ذلك أنني منافق.. أو أنني أقول ما لا أفعل..؟

وكان هذا كافيا لحصوله على التصريح الملائم للتحكم في أوقات ورغبات أخته فبدأ بحجز جهاز التليفون في غرفته هو.. ثم راح يرد على من يطلبها بشيء من الغلظة والجفاء..

وعندما منعها من حضور الندوات.. ومع تصاعد السؤال عليها بعد غيابها.. أرسلت لهم قائلة:

- أنا الآن في قفص الحريم.. مع حنان الرفاعي..

ثم أرسلت من قفصها قصيدة مطلعها:

(لا تسل عن أمينة

فقد داهمتها خيول المساء

وقد داهمتها السموم/ العطايا

والهموم/ الهدايا

وكل الذي أثمرته السنون

كان.. رعد الأنين

ووأد النساء)

*****

وبعد أن أنهيت روايتي التي كان يستمع إليها سعيد باهتمام وتأثر لم ينطق سوى بكلمة واحدة:

- يا خسارة..

ثم لاذ بصمت طويل.. وجدتني مضطرا إلى قطعه ببعض المداعبات.. لجذبه إلى الحديث أولاً ثم إخراجه من (جـو) الحزين ثانيا..

- : على فكرة يا سعيد.. واضح إنك حبيب كبير..

ابتسم في خجل وقال:

- وهل الحب حرفة...؟

تأملت كلمته التي وجدتها قصيرة ومعبرة وتحمل خبرة.. وإجابة عبقرية أتى بها في شكل سؤال:

- لا.. لا.. الحب ليس حرفة.. ولكنه مصيبة..
- صح.. يا أستاذ.. الحب مصيبة..

لاحقته:

- ولكن لا تنس أنه مصيبة جميلة..
- أيضا.. صح يا أستاذ.. مصيبة جميلة..

تهيأت لبث سؤالي المشاغب:

- قصيدتك التي ألقيتها في الصالون تشير إلى تجربة.. والتجربة تقول إنك وقعت في مصيبة جميلة..

لاذ بصمت مفاجئ تظلله إطراقة رأس سحبت نظراته إلى أسفل.. وعندما رفع رأسه أيقنت أنه في هذه اللحظات قد أعد ما يمكن أن يجيب به على سؤالي:

- أتدري يا أستاذ ماذا قال كامل الشناوي عن حالتي:

دمرتني...

لأنني.. كنت يوما أحبها..

ابتسمت وأنا أشاغبه:

- كامل الشناوي قال هذا عن نفسه.. لم يكن يعرفك..

فأكد لي:

- لا.. وا .. يكاد يكون يعرفني.. بل لدي ما يشبه اليقين أنه كتب ذلك عني.. عن حالتي..

ثم أكمل:

[ولم يزل نابضا فيك حبها

لست قل أنا إذن

إ ا أنت قلبها..]

*****

بلا تزويق أو تجميل يا أستاذ.. حبيبتي بـاعتني بخـاتم سلوتير.. وبعقد عمل في الخارج.. جاءهـا مـن اشـتراها وأخذها مني.. تزوجتْه وسافرت معه.. كانت صفقة.. صفقة زلزلت حياتي.. لأنها تمت وأنا مقيد الحرية داخل وحدتي في

أول أيام التجنيد.. يعني.. هي ذهبت إلـى الجنـة.. أثنـاء وجودي في النار..

- ولهذا.. فقد كانت قسوتك عليها واضحة.. يا رجل.. كادت القصيدة تتحول إلى شيء آخر من كثرة ما فيها من سباب ونعوت..

- إنه الألم.. الألم هو الذي دفعني إلى ذلك.. ولكن صدقني.. كثيرا ما كنت أدعو لها بالسعادة في غمرة ارتشافي للشقاء.. أحيانًا وأنا أتولى دوري في الحراسة الليلية وبطني خاوية وجسدي يرتعد من شدة البرد وجيوبي خالية من السجائر.. أتذكرها وأتخيلها تنام على سرير من القطيفة ملفوفة في الحرير الناعم، في غرفة يسبح فيها هواء التكييف الدافئ.. أجد نفسي سعيدا لأنها تنعم بالسعادة.. وأجد نفسي أدعو لها بمزيد من السعادة..

قلت له دون أن يبدو في كلماتي أثر للتعزية:

- : الآن فقط عرفت أنك كنت حبيبا حقيقيا..

قال لي بسرعة:

- : وهل هناك حبيب حقيقي وحبيب آخر غير حقيقي...؟ أمر غريب في رأيي أن الحبيب.. حبيب..

ثم صمت لحظة وأكمل:

- هي لم تكن حبيبة حقيقية بالفعل.. لأنها خانت العهد.. وباعتني بخاتم سلوتير وشبكة ثمينة وعقد عمل.. كلامك صح يا أستاذ.. هناك حبيب حقيقي وحبيب غير حقيقي..

كان بعد هذين اللقاءين (في صالوني ثـم فـي مكتبـي) يحرص أن ينال إجازته في ميعاد الصالون.. وأذكـر أنـه حضر جلستين وهو على قوة التجنيد.. ثم صالونًا واحدا بعد أن أنهى خدمته ثم جاءني في مكتبي وكانت به فرحة غامرة:

- أكرمني ربي بعقد عمل في سلطنة عمان عن طريق.. جئت للسلام عليك وتوديعك.. سأسافر بعد أيام.. أريد عناوينك وتليفوناتك... أنوي مواصلة الحوار معك.. إذا سمحت لي بذلك.

وبالفعل ظل علـى اتصـاله بـي.. متحـدثًا فـي كـل الموضوعات كتابة.. وأبادلـه الـردود قـدر اسـتطاعتي..

وحرصت أن تكون ردودي متوازية مـع المواقـف التـي تستدعي أن أعاجله بنصيحة..

*****

كتب لي أنه تعرف على شاعرة فلسطينية تعيش معه فـي مسقط وترتاد مثله النادي الأدبـي.. وراح يصـفها وصـفًا لاحظت أنه يعود به إلى وصف حنان الرفاعي كأن يقول:

" صوتها يذكّرك بصوت حنان وهي تلقي الشعر.."

ثم يعود إلى أوصاف أخرى لحالتها الاجتماعيـة والتـي تتلخص في كونها تعيش مع والدها عامل البناء فـي شـقة صغيرة تؤكد أنهم في حال غير ميسورة..

وسرعان ما يعود إلى وصف الفتاة:

" وجسدها به رشاقة إن لم نقل في نحافة جسم حنان..."

وحتى عندما راح يتحدث عن شعرها.. قال عنه:

" ليس شعرا وجدانيا به مسحة الأسى الذاتي الشفيف الذي تطلقه حنان حارا من قلبها.. ولكنه مفعم بالوطنيـة الزاعقـة التي تؤكد أنهم حتما إلى الأرض عائدون"

لا أدري: لماذا أحسست أن سعيدا هذا قد أحـب حنـان.. وأنهما عندما تجاورا في جلسة صالوني كـان تـاريخ هـذه الجلسة هو تاريخ غزو حنان لقلب سعيد.. فسعيد حالته تؤكد ذلك.. الشاب لم يوضح لي ولكنه دوما يلـف ويـدور فـي خطاباته حتى يصل بنعومة إلى إرسال تحية وسلام لها.. عن طريقي.. أما حديثه عن فتاته الفلسطينية فإنما تأكدت منه أن له قلبا عطشانًا دوما للحب وأن جرحه الذي لم يندمل به داء دواؤه هو الحب نفسه.. وسمحت لنفسي أن أتخيـل أن تلـك الفتاة الفلسطينية هي التي أحبته... وأنه عندما وصلته رسالة الحب لم يرفضها.. تفتحت الزهـرة الناعسـة لتتلقـى رذاذ المطر الخفيف ترتشف منه ما يحييها وسط باقي الزهـور.. ومع هذا فقد هاجمتْه الصورة الطاغية لحنان التي من المؤكد أنها لا تدري ما يحدث منها.. أو ما حدث منها.. فهي كمـا يتراءى لي ما زالت متسربلة في ثياب الهـم.. هـم حالـة اللاوفاق التي تربطها بأبيها وتربط أمها بأبيها وأنها - مـع إيمانها بحالتها الشعرية وقناعتها بوجوب حرصها على تغذية ذلك الفرس المبدع الذي يصهل فـي داخلهـا.. قـررت ألا تستسلم بل أن تتخذ كل سبل المناورة المقبولة لتشـارك فـي

الحياة الأدبية.. ذلك أن هذا الفرس الحبيس لابد وأن يقفـز – في يومٍ ما – محطما قفصه الشائق ليركض فـي مضـمار الحياة..

هي تعلم أنها مثل كل أصدقائها من الشعراء والشـاعرات لن تجني حصادا من الشعر سوى المزيد من الهم اللذيذ، الذي يبدو في شعرها كنوع من الأسى الدافئ كما عبر عنه سـعيد عبد الباري..

وهي تعلم أن مشاكلها المادية التي لم تنته بعد تخرجها لن يحلها الشعر.. فالشعر والأدب لا ينفقان على مـن أدركـاه بهمهما.. بل العكس هو الصحيح.. فمن أدركته هذه الذائقـة إنما يتخفَى في سعادة وهمية من صنعه.. مضحيا بسـعادته الحقيقية وهو يحتضن تلك النعمة التي أنعمـت بهـا عليـه السماء.. ويؤكد أنها نعمة بمقياسه.. ولا يتذكر أنهـا نقمـة بمقياس الآخرين، الذين يرونه بحاجة إلى كل الأشياء التـي تعمد أن ينساها.. بحاجة إلى المسكن والزوجة ونفقات الحـد الأدنى من حياة مقبولة..

لقد استدرجني موضوع سعيد عبد الباري إلى التنقيب في حياة الشاعر وسام الزواوي للوصول إلـى حقيقـة علاقتـه

بحنان.. وماهية هذه العلاقة.. هل هو الحب.. أم الشعر.. أم الحب والشعر.. معا...؟

ورغم أنى أكره الفضول.. إلا أنني وجدتني بحاجة إلـى استخدامه في حالة حنان ووسام فقط..وليس همي أن أعرف عنهما أي شيء قدر همي أن أعرف أين يقف سـعيد عبـد الباري بالضبط..؟ وهل هو في المكان الصحيح أم لا..؟

*****

قررت ذلك وأنا أتخيل أن حالة الغرام التي يكتب لي عنها سعيد مع الشاعرة الفلسطينية ليست سوى حالة حب وجد فيها من تحبه ويحبها وهما.. لأنه يكتب عن حنان ـ أكثر ممـا يكتب عن الفلسطينية شُكران ـ وهذا هو اسمها.

لاحت لي الفرصة حين قالت نيفين أن حنان زارتها اليوم وأن حالتها الصحية ليست على ما يرام فهي تـزداد نحافـة ويزداد شِعرها ذهولاً وغموضا..

سألتها:

- هل تعرفين السر...؟ أم تسألين عنه...؟
- لا أعرف إلا ما يتناقله الأصدقاء..

جربت كيف يكون الفضول.. فقلت لها ضاحكًا:

- إذن فأعطني الفرصة حتى أمارس مسألة النقل هذه..

ضحكت وقالت:

- يبدو أنهما وجدا طريقهما مسدودا نحو الزواج.. فإمكانيات وسام المادية لا تسمح له بذلك بعد أن فشل في العثور على وظيفة تؤهله للادخار، وبعد أن رسا قاربهما على شاطئ الكساد في شكل وظيفة مؤقتة في إحدى المدارس.. يقومان بالتدريس المؤقت.. أي أنهما يتسلمان النقود التي يجود بها مدير المدرسة وليس ما يجود به الكادر الوظيفي..

وسام قال لمن حوله:

- جلست لأحسب عدد السنوات التي يمكننا فيها ترتيب بيت متواضع للزوجية بادخار نصف دخلي ونصف دخلها (هذا إذا أسميتموه دخلاً) وبضحكته الرنانة العذبة أكمل لمحدثه:

- وجدتها حوالي ٤٥ سنة..

قلت لنيفين: ٤٥ سنة...؟

ضحكت نيفين وقالت:

- هذا بجانب أنه افترض نظريا أنه ستحدث معجزة وستظل الأسعار ثابتة لمدة ٤٥ سنة...

سألتها: كم هو المبلغ الذي يخططون لادخاره..؟

قالت: ٥٠ ألف جنيه

جلست أحسبها:

- الخمسة وأربعين سنة بخمسمائة وأربعين شهرا.. يعني الشهر ١٠٠ جنيه تقريبا..

وافقت نيفين:

- مظبوط.. هذا هو نصف دخلهم.. كل واحد بالكاد يحصل على مائة جنيها في الشهر..

سألتها:

- أتريدين القول.. أن وسام وحنان قد يأسا واستسلما وقاما بصرف النظر عن فكرة الزواج..

قالت نيفين:

- الحقيقة أن وسام بما لديه من نبل وأخلاق دمثة اختار أن يضحي بحبه.. ليفسح الطريق أمام حنان لتجد حظها في عريس مناسب.. قال لها
- ليس بالحب وحده يحيا الإنسان.. لن أكون أنانيا وأتشبث بك دون طائل إلا ضياع عمرك بجانبي.. فمهما كنت أحبك فضميري لن يسمح لي أن أوقف عجلة عمرك.. أنت جميلة ومثقفة وكم من فارس يتمنى قربك..

سألتُ نيفين:

- وحنان... وافقت.....؟

أجابت:

- حنان قالت لي إنها ادعت الموافقة.. وكان رأيها الحقيقي أنه ما دام وسام بجانبها فلا توجد لديها أية مشكلة.. ليقل ما يقوله.. لماذا ننسى أن هناك زمنًا نتحرك فيه ويحركنا ويتحرك معنا.. لماذا لا نعطي مسافة للزمن...؟

حدثت نفسي على مرأى من نيفين:

- موقف عبقري.. وجميل..

لاحقتني نيفين:

- ولكن ما فعله وسام بعد ذلك جعلنا نستغرب موقفه.. لقد راح يقلد الأفلام العربية.. ونسج قصة حب وهمية مع فتاة أخرى حتى تكرهه حنان أو تنساه.. في أول الأمر حنان انطلت عليها الخدعة وتأثرت بالتمثيلية.. وعندما عرفت من هي هذه الفتاة التي كشفت اللعبة لسابق علمها عن رأى وسام فيها.. وأنه يعلم أنه المغامر رقم كذا في تاريخ هذه البنت.. صارحته برأيها في لعبته.. فاعترف لها وقد اعتراه الخجل.. ثم عادا كسيرتهما الأولى ولكن باتفاق جديد:

- " لا حديث عن الزواج طالما أن الفقر هو ثالثنا..."

- إذن ما الذي جعلهما في خصام هذه الأيام...؟

- هذا موضوع غريب.. حكاه لنا الشاعر فتحي شمس الدين...؟

- ياه.. أخيرا ظهر.. لم نعد نراه كالماضي..

- اعذره.. فهو بعد سنوات البطالة عثر على وظيفة بقرية سياحية في الغردقة.. بائع في محل ملابس.. تصور..؟!! المهم أنه مازال يهتم بالشعر وتمكن من عقد صداقات أدبية هناك..

كان وسام قد كلفه قبل سفره بالبحث له عن وظيفة معه.. وبالفعل عثر له وظيفة بائع في محل بيع لملابس السيدات..

تساءلت بصوت خفيض وكأنني أحدث مع نفسي:

- ليسانس آداب.. إنجليزي.. جيد جدا.. وشاعر واعد محترم.. ويقف يبيع الملابس..؟ ما هذا...؟!!..

سمعتني نيفين فأسرعت بالقول:

- لن تصدق مدى فرحته وهو يسافر لاستلام هذا العمل.. شاب أرهقته البطالة.. وأرهقه حب الشعر.. وأرهقه مصروف الجيب.. ما زال يعاني من كونه ما زال يأخذ من والده بدلاً من أن يعطيه.. قال لنفسه: أجيب مصاريفي..

أخذني الاشتياق للأحداث القادمة:

- وماذا حدث...؟

- ما حدث أن فتحي شمس الدين همس لمن حوله من باقي الشعراء أن وساما تورط في علاقة عاطفية مع بنت خواجاية ألمانية جميلة وثرية.. وأنه يبادلها الحب.. وما ظهر من علاقتهما حتى الآن أنه سوف يسافر معها إلى ألمانيا... يعني وسام وجد الفرصة لاستغلال وسامته.. وثقافته..

أخذني الاستغراب لتسلسل الأحداث بهذه الكيفية..

- وما دام الخبر قد تسرب فمن المؤكد أن حنان قد علمت به..

- ليتها ما علمت لأنها عندما لم تجد أمامها وسيلة للاتصال به للتأكد من مدى صحة هذا الخبر أغلقت على نفسها الباب..

وهات يا حزن..

وهات يا حزن..

هات يا حزن..

* * * * *

(٢)

- آلو.. أهلاً سعيد..
- أنا آسف.. أخشى أن أكون أيقظتك من النوم..
- لا يهم.. لم أكن نائما.. كنت أستعد لذلك..
- إذن أرجو المعذرة.. أنا بحاجة إلى محادثتك.. أرجو أن تتحملني.. بعدها تستطيع أن تنام وأستطيع أنا أيضا أن أنام..
- تستطيع أن تنام...؟ هل هناك ما يقلقك يا سعيد...؟ إن كان على الحفلة فقد كانت رائعة.. وخرجنا منها جميعا ونحن سعداء.. ولكننا لاحظنا أنك تكبدت تكاليف جمة.. كان يجب أن تختصر التكاليف..

- لا يهم التكاليف.. المهم هو أنكم سعدتم.. وأسعدتموني..

- جدا.. وكلنا تقريبا أجمعنا على تقييم إيجابي للحفلة.. ولكن.. ما بال صوتك به نبرة حزن.. ما الذي يضايقك...؟

- الشاعرة حنان الرفاعي..

- تقصد لأنها انصرفت مبكرة..؟ ألم تعرف ظروفها بعد.. هل نسيت قفص الحريم...؟

- ما أقصده غير ذلك تماما.. فرغم سعادتي بكم وسعادتي بحضورها إلا أنني كنت آأمل أن أتمكن من مفاتحتها عن مكنون قلبي متخيلاً أن الفرصة ستواتيني أثناء الحفلة..

أفسحت له الطريق ليمضي فيه بسهولة:

- أخشى أن تكون قد وقعت في مصيبة جميلة.. أقصد أن تكون قد أحببت حنان الرفاعي..

- هذا هو ما حدث..

- وماذا عن الشاعرة الفلسطينية..

- حاولت أن أحبها.. لم استطع..
- ربما لأنك قد أحببت حنان قبلها..؟
- هذا هو ما حدث بالفعل..
- وهل اعترفت لحنان...؟
- ألمحت لها...؟
- التلميح لا يكفي يا سعيد في هذه المسائل المصيرية التصريح واجب..
- كنت خائفًا..
- هل هناك محب يخاف من محبوبته.؟ الجبن لا يتواءم مع الحب..
- : بالعكس.. المحب أجبن ما يكون قبل الاعتراف..
- : عجيب..!!
- : هذا هو الواقع..
- : ثم قص لي ما حدث..

كان مهتما بدعوتها.. وكان سعيدا أنها استجابت لدعوته.. وحتى يكون التركيب سليما استطاع أن يعثر على رقم تليفون

وسام في الغردقة، وعندما طلبه ردت الألمانية وعرفت اسمه ثم نادت على وسام.. الذي جاء وصوته متهللاً..

- " حمدا على سلامتك.. متى حضرت...؟"..

وبعد التحايا التقليدية وجه سعيد له الدعوة لحضور اللقـاء مع باقي الشعراء والكتاب والذي اختار أن يكون عنوان اللقاء هو تكريم الشاعر محمد الشهاوي بمناسـبة حصـوله علـى جائزة كبرى.. اعتذر له وسام لأن وقتـه لـن يسـمح لـه بالحضور.. إلا أن سعيدا استجمع قواه وعاجله بهذا الخبر:

- : على فكرة أنا عزمت حنان.. ووافَقْت أن تحضر..

وكان وسام حادا على الطرف الآخر:

- عزمت حنان..؟ وما شأني بذلك...؟

- وما شأنك بذلك...؟ ألا ترى أن حضورها سيسعدك.. كما سيسعدنا جميعا...؟

صمتَ وسام طويلاً أمام هذا الحرج الذي يواجهه.. فعمد إلى مبدأ المواجهة الصريحة:

- قلت لك إنني لن أحضر.. إذن فأين سعادتي بحضورها.. سعيد...؟ أنا أعرف أنك لا تعرف الخبث والمناورة.. هات من الآخر.. ما الذي تبغي الوصول إليه...؟

- شيء واحد.. سؤال وحيد.. هل أنت مرتبط بحنان...؟

- نحن الآن في حالة خصام... ارتحت...؟

- خصام ممكن.. فالخصام حالة مؤقتة..

قاطعه وسام:

- ما تبحث عنه غير موجود.. ارتحت.. لو في دماغك شيء ما.. اتوكل على ا .. وصارحها..

- دماغي...؟

- قصدي.. قلبك..

تلجلج سعيد على التليفون.. ولم يجد ما يقوله إزاء هـذه الصراحة الفجة التي عامله بها وسام..

طيب.. أنا آسف يا وسام.. أخذت من وقتك كان نفسـي أشوفك في الحفلة..

ولأن سعيد يعلم أن حنان لن تظـل طـويلاً بيـنهم فـي الحفلة.. وربما أتت لمجرد المجاملة ثـم ستمضـي مبكـرة كعادتها، وعندما وجدها خالية مع نفسها في حديقة النادي قبل أن تصل نيفين وأمينة.. اقترب منها واستأذن فـي الجلـوس معها ثم فاتحها بعفويته الشديدة والمباغتة..

- حنان...؟ إنت مرتبطة...؟

ردت عليه فورا:

- لأ.. لست مرتبطة.. لماذا تسأل..؟

كان يتمنى ألا توجه له سؤالها الأخير:

- ماذا تسأل...؟

وأمام هذا الحرج قرر أن يرتدي ثوب الجرأة:

- أليس من الممكن أن يكون لإجابتك أهمية تاريخية بالنسبة لي...؟ أهمية تجعلني أفكر في أن أكون أنا صاحب النصيب..

سألته باستغراب:

- أهمية.؟ وتفكر..؟ وصاحب النصيب..؟ ما هذا الكلام يا سعيد...؟!

إنها تواجهه بنفس سلاح الصراحة الذي واجهه به وسام.. وتذكّر أنه عندما زاد حرجه جدا من وسام لم يجد بـدا مـن الاعتذار وإنهاء المكالمة.. قال لنفسه:

- " يبدو أنني سأفعل نفس الشيء.. الاعتذار..ثم الانصراف.."
- آسف يا حنان.. يبدو أنني لم أفلح في توصيل رسالتي... عن إذنك..

تركته ينصرف.. وحضرت جانبا من الحفل.. ثم بحثـت عنه فـي زحـام المـدعوين حتـى تحصـل علـى الإذن بالانصراف.. فوجدته قد أعد لها سيارة خاصة بسائق حتـى يقوم بمهمة توصيلها، وسار معها حتى فتح لها باب السيارة.. وما إن أجلسها.. وتلقى منها ابتسـامة ودودة وكلمـة شـكر مخلصة على هذا الاهتمام، وما إن انطلقـت بهـا السـيارة ومضت إلى بعيد حتى بحث صـاحبنا عـن كرسـي خـالٍ فاستلقى عليه متعبا مكدرا متذكرا كل ما دار منه من حـديث عفوي مع وسام بالأمس، ثم مع حنان اليوم ووجد أنه لم يكن موفقًا تماما في إدارة هذين الحديثين.. فجلـس بعيـدا عـن ضيوفه مكتئبا وممرورا..

وهات يا حزن...

هات يا حزن..

هات يا حزن..

(٣)

بعد أن فهمت منه ما حدث.. رجوته أن يوضح لـي حقيقة ما يفكر فيه.. فأفهمني أنه بعد أن عرف منها أنها غير مرتبطة.. وقبلها عرف من وسام أنه لم يعد مشغولاً بها (لأنه طبعا غارق لشوشته في حب البنت الألمانية).. الأمل يراوده في جذب حنان إلى مشروعه بالزواج منها، والسفر بها بعـد انتهاء أجازته التي مازال فيها متسع من الوقت.. وأفهمني أن تفكيره قد هداه أن أُقرب بينهما في جلسة خاصـة بمنزلـي؛ حيث من الممكن ألا يروق لها هي أن يدعوها إلى أي مكان آخر للتحدث معها..

وجدتُ أن فكرته لا تخلو من وجاهة.. وأننـي كصـديق لهما لن تكون الصداقة فقط هي مدخلي للجمع بينهما، ولكنها الأبوة المعنوية التي تفرض نفسها كخلفية شائقة تقع الصداقة على مقربة منها..

ولأن حنان لا تملك تليفونًا في منزلها فقد قلت له أن يترك هذا الموضوع لي؛ حيث إنني لن أُحرم من وسيلة أدعو بهـا حنان لزيارتي، وسأعودك للحضور بعد أن أكون قد أخبرتها بوجودك..

كنت أعلم أن الشاعر فريد إيهاب يسكن بجوارها.. ويمكنه إبلاغها بضرورة أن تقوم بالاتصال بي من أي سنترال..

*****

طلبته في الصباح الباكر وكأنني قد نسيت أن فريد يحـب السهر.. وينام متأخرا ويصـحو كالفنـانين قـرب أو بعـد الظهر.. وبعد أن فهم مطلبي الذي أمليته له برجـاء وحـب وتوصية شديدة بالاهتمام.. وجدته يتنفس الصعداء ويقول:

- لقد انزعجت فقد ظننت أول الأمر أن شاعرا من معارفنا قد مات..
- لا.. لا.. كلهم بخير..

تأملت ما يمكن أن تناله هذه المكالمة من فريـد إيهـاب، وكيف سيحاول أن يجد تفسيرا لهذه الواقعة التي تحدث لأول مرة.. فالطلب غير عادي.. والميعاد غير عادي.. وكوني لم

أذكر له سببا لسر هذا الطلب فسوف يعطي لنفسه الحق فـي البحث عن هذا السر..

لقد شغلني هذا التحليل لبعض الوقت عندما تأملت علاقتي بهؤلاء الشعراء الشباب، وكيف أن حياتهم تخلو من الأسرار والغموض، وأنهم ليسوا سوى مجموعة من الكتب المفتوحـة سهلة القراءة، وأنهم لا يألون جهـدا فـي قـراءة بعضـهم البعض.. وأن أجمل أوقاتهم هي تلك الأوقات التي يقضـونها بين يدي الشعر.. وأجمل التهاني التي يتبادلونها هـي التـي تجيء بعد مولد قصيدة جديدة ولدت على يد أحدهم.. وأجمل خلافاتهم هي التي تجيء على مائدة نقد وتحليـل القصـائد.. وهي الخلافات التي يتركون بقاياها صـريعة الحـب علـى المقاعد التي يغادرونها وقد تشابكت أيديهم وقلوبهم..

هؤلاء الشباب لا يشغلهم شيء قدر مـا يشـغلهم قضـية الوطن والفكر والشعر.. ورغم شـعورهم الأكيـد أنهـم لا يملكون سوى أصوات مبحوحة يضيع صداها في الخـلاء.. وإنها لا تُسمع البتة ولن تُسمع فإن أجمل ما يفعلونه هو أنهم يقولون كلمتهم ويمضون.. ولكن.. يمضون إلـى أيـن...؟ يمضون للأسف إلى الفراغ الذي يحـيطهم.. فـراغ عـدم

الانشغال بوظائف محترمة يجـب أن يكونـوا قـد زينـتهم كراسيها.. وزينوا هم تلك الكراسي.. ثـم فـراغ الانشـغال بمنزل آمن به زوجة وولد وبداية لرسـالة عمـر تتصـاعد قيمته..

لقد تذكرت أن فريد هذا رغم شعوره الداخلي أنه مشروع شاعر كبير وأن كل ما يؤديه من أعمال أو مواقف وهو في طريق الصعود سيحسب له أو عليه، عندما تتناولـه الأقـلام بالبحث والدرس في يومٍ ما.. رغم هذا فهو لا يتردد فـي أن يكسب قرشه بالحلال من أي عمل متواضع بدءا من أعمـال البيع في محلات مواد البناء أو في المكتبات الصغيرة.. فهو الآخر قد انضم منذ تخرجه من معهده العـالي إلـى قائمـة الانتظار الطويلة المملة مع الشـباب المتـرقبين لوظـائف الحكومة.. تلك الوظائف التي لن تجيء..!! ولن تجيء..!!

ولأن الحكومة لم تتصرف في تشغيلهم؛ فقد تصرف هـو في تشغيل نفسه مع آخرين في مشروع يعتمد على اسـتغلال موهبته في الرسم والخط.. واشترى حريته التي تسـمح لـه بالسهر في مرسمه إلى ما شاء ا .. وينام في منزله نهـارا حتى يكتفي..

جاءني صوتها ناعما رقيقًا مهذبا.. وبعد التحايـا الطيبـة ولأنها تتحدث من سنترال إلى تليفوني المحمول فقد حاولـتُ السرعة والاختصار..

- هل فكرتِ في كلام سعيد عبد الباري...؟
- سعيد لم يقل شيئًا معينًا..
- قصدك لم يوضح شيئًا معينًا..
- سعيد لمح فقط..
- لكن الرجل سألك إذا كنتِ مرتبطة..؟ وأنت صارحتيه بأنك لست مرتبطة..
- دعنا نتفق أولاً على معنى الارتباط.. لقد أجبت على سؤال سعيد مستلهمة الشكل الخارجي للارتباط عند الناس.. هل فهمتني...؟
- : الآن.. فهمتك..

دار بذهني أن تكون حنان تلمح لي بقصتها التي لم تنتـه مع وسام الزواوي. ولأني لم أضع يدي تماما على حقيقة هذه القصة؛ حيث إنها كما أفهمتني نيفين البدوي مجرد أقوال يتم تناقلها.. فإنني لم أسمح لنفسي أن أفتح هذا الموضوع عنـد

بدء النقاش معها، إلا إذا بدأت هي بـالعروج إليـه.. هنـا سأسمح لنفسي بالعروج معها..

سألتها:

- ما رأيك في شخص وشخصية الشاعر سعيد عبد الباري...؟
- لا أستطيع الإجابة.. لأني لا أعرف عنه سوى الشكليات.. أو بعض ما يعرفه الناس عنه.. لذا لا أستطيع الحكم عليه..
- وما هي تلك الشكليات التي يعرفها الناس...؟
- ما هو معروف هو أنه نشأ يتيما.. ومعنى هذا أنه فقد جزءا كبيرا من الدفء العائلي.. ومن المؤكد أنه دون أن يدري يبحث عن تعويض هذا الفقد في العثور على الدفء العاطفي... من هنا فهو متعجل.. هل معقول يا أستاذ أن يحبني سعيد منذ النظرة الأولى...؟
- : ولم لا...؟

- : ألم يحاول أن يكبح جماح نفسه وهو ربما قد استشعر مثل آخرين أن هناك ما يمكن أن يكون قد ربطني بوسام...؟

- هل هذا هو الارتباط الذي كنت تقصدينه..؟

- لم لا...؟ ألا يكفي ذلك.؟ ألا تعتبر المشاعر هي الارتباط الحقيقي.. وأية شكليات أخرى تكون هي المكملة لهذا الارتباط...؟ في رأيي أن الزواج نفسه شكل من أشكال هذه المشاعر..

- ولماذا لا نفهم من موقفه أن الحب الأعمى جعله لا يفكر في كبح جماح نفسه...؟

- كلامك هذا صحيح.. فهو قد تناسى تحليل أي شيء واستمر في الحب.. وأخذ قرارا بالزواج.. يعني انتهى من مرحلة الحب ودخل في إجراءات الزواج بمعنى أنني لست طرفًا.. فهو واثق أنني سوف أوافق.. من أين با أتى بهذه الثقة...؟

- واضح أنك أخطأتِ في فهمه..

- بالعكس.. فهمي له هو الصحيح.. هو إنسان طيب وودود.. لكن عندما حاول أن يؤدي دور

الولد الشقي الذي يفهم في جذب قلوب الفتيات لم يكن ذلك مناسبا له.. كان من الممكن أن يتعامل مع الشخص الحقيقي الذي داخله.. شخص الشاعر الرقيق المهذب الخجول..

- هل معنى هذا أنك حتى الآن ترفضين عرضه...؟

- وبشدة.. ليست هذه هي الطريقة التي أقبلها..

- إذن اسمعيني.. لابد أن أهرب منه عندما يسألني..

- يسألك...؟ عن أي شيء...؟

- : عن الميعاد..

- : أي ميعاد...؟

- ميعاد لقائك به في منزلي حتى تتفاهما معا أمامي بشكل صريح وهادئ..

- وهل هذا تفكير...؟ يتعامل معي لأول مرة في وجود شخص ثالث.. يبثني حبه على مرأى من شاهد.. ومع احترامي لك.. حتى لو كنت أنت

هذا الشاهد.. لقد جعلك واسطة... وهل في الحب واسطة.. هذا الأسلوب لا يعجبني..

- إذن فسوف أدعي أنني لم أتمكن من محادثتك.. وهو بالتأكيد سيبحث عن طريقة أخرى للوصول إليك..

خرجت منها ضحكة عذبة وأكملت تعليقي:

- يعني ورايا ورايا..

ثم أطلقت ضحكاتها العذبة.. مرة أخرى..

رحت أتأمل ما قالته حنان عن ذلك الدفء العائلي الـذي افتقده سعيد، وأنه يحاول تعويضه بنوع آخر مـن الـدفء.. وهو الدفء العاطفي.. دفء الحب..

قلت لنفسي

- لو كان الأمر كذلك فهذا من حقه.. فالجائع يطلب الطعام ولا غرابة في ذلك.. وكذلك العطشان يطلب الماء.. ولا غرابة في ذلك.. والرجل يهفو إلى ري قلبه المتعطش.. ولا غرابة أيضا في ذلك..

إلا أنه خطر لي خاطر غريب رحت أحلله بيني وبين نفسي..

لقد وضعت حنان يدها على نقطة ذكية وهي: لماذا لم يحاول سعيد أن (يفرمل) نفسه وهو من المؤكد أنه قد وصله بشكل أو بآخر شيء ما عنها وعن وسام.. أقل ما يقال عن هذا الشيء إنهما (بيستلطفوا بعض).. وعن نفسي كمشاهد رأيتها- كما رآها الجميع في جلستها التي جاءت بالصدفة بجوار سعيد في أول زياراته للندوة - انصرفت تماما عنه عندما جاورها وسام من الجانب الآخر، وما لبثا أن خرجا سويا مودعين بمباركة ضاحكة من الجميع، حتى تلحق حنان ميعاد نومتها في قفص الحريم.. المعنى: أن من لم يعرفهما ويشاهدهما لأول مرة لابد أن يعرف من طبيعة وشكل العلاقة أن هذان: (أنتيم) بالتعبير الجديد الدارج..

إذن: هل راق لسعيد دون أن يدري وبحكم ما يتحرك في نفسه من إحساس بالظمأ العاطفي أن يسطو على حنان بالذات..!؟ وينتزعها من وسام...؟! هل هو دور الانتقام الذي يعيش في عقله الباطن من حالة مماثلة كان هو فيها المسطو عليه...؟ وحبيبته هي المخطوفة.. وزوجها الخاطف كان

مجرد عريس ثري هبط عليهمـا بمظلـة الحـال الميسـور فالتقطها كما تلتقط الحدأة كتكوتًا بريئًا ثم تعاود الانطلاق...؟ هل أعد الخاتم الألماظ والشبكة الثمينة وهو لا يعلـم أنهمـا أدوات الجريمة كما لا يعلم من هي الضحية...؟

رتجفْتُ عندما وصلَتْ بي التحاليل إلى تلك النقـاط التـي تثير التأمل.. فاللجوء إلى تحليل المواقف بهذه الكيفية شـيء قلما يخامرني الاهتمام به في تعاملي مع الناس؛ حيث أنـك تلقى ظاهرهم أيا كان.. هو الذي يعنيني.. ويبدو أنني ارتحت لمعاملة – الأخذ بالظاهر – عندما وجدت الدين نفسه يحـث عليها.. إلا أنه يداخلني ذلك اللوم على ما ورطت فيه نفسـي ـ من إحضار أدوات حفر وتنقيب ـ أجهدت نفسي بها فـي الوصول إلى قرار بئر سعيد.. شيء لم يكـن لـه داعٍ، وإذا كان الداعي إلى هذا هو ما ألمحتْ به حنان مـن اعتقـاد أن سعيدا يعوزه الدفء العاطفي عوضا عن الدفء العائلي، فإن هذا الجنوح إلى هذا التحليل العادي ـ منهـا ـ يجـب ألا يكون كافيا لإغرائي باللجوء لتحليل آخر..

*****

جاءني صوته لا يخلو من مرح.. ولأني في طريقي إلـى استخدام سلاح أبيض اسمه الكذب ـ المانع للحـرج ـ فقـد خفت أن يكشفني صوتي وأنا أستخدم هذا النوع ـ العبيط ـ من السلاح فبادرته:

- ما هي أخبارك...؟ قلت لي إنك ستمد أجازتك.. طبعا لإنهاء موضوع حنان..

- فعلاً.. هناك صديق يقوم لي بهذه المهمة مع شركة الطيران لتدبير مقعد جديد بميعاد جديد..

- عظيم.. ظننتك ستقول لي معقدين: لك ولحنان..

ضحك ثم سألني:

- إذن فلديك بشرى.. هل...؟

قاطعته:

- لا تتعجل.. ولكني أتساءل: لماذا هذا التركيز المفاجئ على الزواج من حنان، حتى أنك اتخذت قرارات هامة قبل أن تضمن موافقتها...؟

انزعج فجأة:

- لماذا هذا السؤال..؟ إذن فهي لم توافق..

- من أين لي أن أعرف رأيها...؟ أنا أناقشك بعد أن.....

لم يحتمل استطرادي فقال:

- إذن فهي لم تتصل بك...؟
- للأسف.. لم أتمكن.. ولكني فكرت فيما هو أفضل من الاتصال بها.. أقصد خطة أخرى..
- خطة...؟ ما هي الخطة..؟؟
- ألا تتعجل الارتباط بها في هذه الأجازة التي قاربت على الانتهاء.. سافر وأنت متفق معها على قيامكما بتبادل الرسائل.. حتى تقتربا من بعضكما البعض.. مطلوب أن تصنعا حوارا للمستقبل.. أمامكما عام كامل لتفعلا ذلك..

تمتم وكأنه يحدث نفسه:

- عام كامل.....؟

أجبته وكأنني تلقيت حديثه..

- أجل.. عاما كاملاً.. من حق الفتاة أن تفهمك.. هذا إن لم نقل أن من حقها أن تحبك.. الحوار هو الذي سيؤدي إلى ذلك..

تساءل في ذهول:

- الحوار..

- أجل.. الحوار..

صمتَ طويلاً.. مما جعلني أتأكد أنه جاءني على التليفون مرحا، وسيخرج منه مهموما.. ثم تأكدت أنه ليس وحده فـي ورطة، ولكنني معه في نفس الورطة..

- أين ذهبتْ...؟؟؟

- سوف أسألُ عن المدرسة التي تعمل بها، وأذهب لزيارتها ومفاتحتها هناك.. لابد أن أقابلها..

تذكرت التعليق المرح لحنان (ورايا ورايا)

- ألا تخشى أن تسبب لها إحراجا..

- أي إحراج..؟ يا سيدي أنا أطرق الباب الرسمي ولا أحاول الدخول من الشباك..

- أنا أقدر ذلك.. ولكني أرى أن حنان فتاة شاعرة حساسة، وليست تقليدية.. للعلم: لو قدمت عرضك هذا لأي فتاة أخرى في مكانها لرحبت بك فورا.. فالزواج بالنسبة لحنان في نظري تصريح معلن بخروجها إلى الحياة..ومغادرة قفص الحريم.. وأنا استغربت لترددها.. وتأكدت أنها ترفض أن تبيع نفسها لأقرب أو لأول مشترٍ.. مهما كان هو.. ومهما كان الثمن الذي يقدمه..

- تقول مترددة.. إذن فقد تحدثتما..!!

يا نهار اسود.. لقد نسيت أني أكذب... لقد كشفني..

وبشيء من التلعثم كان لابد أن يفهم سره قلت له:

- أقصد ذلك التردد الذي بدا عليها يوم أن عرضت عليها الأمر في الحفلة.. هل نسيت..؟ لقد كان مطلبك واضحا.. وكان لابد لها أن تفهمه..

صمتَ قليلاً.. وأنا قلبي معلق بين شـفتيه، لأرى تـأثير الإصلاحات الأخيرة.. هل صـدقني.. أم لا.. إلـى أن ردد بهدوء:

- يبدو أنني فاجأتها.. وكان مدخلي لها في الحديث ركيكًا.. دائما أتذكر ذلك الضيق الذي بدا عليها.. لابد أن أعالج ما أفسدتُه بنفسي..

وغادر سماعتي مهموما، وليس كما جـاء إليهـا فرحـا، ينتظر خبرا جميلاً راق له أن يجنّد له نفسه.. بالمرح..

قلت لنفسي:

- من المؤكد أن سعيدا قد أغلق على نفسه بابا الآن.. وجلس يؤنب نفسه للمرة الثانية..

وهات يا حزن..

وهات يا حزن..

وهات يا حزن..

*****

(٤)

آخر ما كنت أتوقعه أن يتصل بي وسام الـزواوي مـن الغردقة محاولاً التسال إلى منطقة كان قد هجرها بخاطره... وها هو يعود إلى التلصص حولها بخاطره أيضا.. إذ أنه بعد وجبة دسمة من تناول أخبار السياحة والسياح ونسب الأشغال في آلاف القرى التي ترصع بها شاطئ الغردقة وجدته يدفس هذا السؤال:

- سمعت أن حنان مريضة.. هل هذا صحيح...؟
- من منا يسأل الآخر عن صحة حنان.. أنا أم أنت...؟!
- آسف.. لعلك تعلم أنها اختارت أن تخاصمني عندما فهمتْ من بعض الأصدقاء أنني بعتها ببنت خواجاية.. يبدو أنها عندما أرادت أن تتأكد من ذلك وطلبتني في التليفون كان من سوء حظي أن الألمانية هي التي ردت عليها.. حنان ذكية

وفهمت أنني أعيش مع الألمانية في مكان واحد.. أغلقت التليفون في وجهي.. ومازال الإغلاق قائما حتى الآن.. حاولت إقناعها ولم أفلح..

- بماذا حاولت أن تقنعها...؟

- أقنعها بأن ما يربطني بالخوجاية علاقة جسد فقط..

- علاقة جسد فقط...؟ أول مرة أسمع هذا التعبير..

- كيف ذلك.. وتلك هي العلاقة السائدة على الساحة هذه الأيام.. علاقة مولودة حتى تموت في أقرب فرصة.. علاقة بها الصراحة المختبئة.. أو الاختفاء الصريح.. علاقة مبنية على السلام الذي كان يجب أن يكون عابرا فطال زمنه قليلاً.. تحية قلبية عابرة تحولت إلى احتضان جسدي طويل.. كلا الطرفين يعلم أنه مجرد احتكاك وسوف ينتهي..

- تقصد أنها علاقة ترانزيت..

- تقريبا..

- وأين حنان في تلك المحطة...؟
- حنان في حالة انتظار لن يطول.. في انتظار عودتي..
- عودتك من أين...؟
- من السفر.. سأسافر معها ثم أعود لحنان..
- ما عنوان تلك الألمانية في حياتك الآن.....؟
- زوجتي..
- زوجة وتعلم مقدما أنها محطة...؟
- لا يهم أن تعلم.. أو لا تعلم.. كل التجارب المماثلة انتهت إلى الفراق السريع.. لا توجد زيجة من هذا النوع في الغردقة استمرت لأكثر من عامين..
- هل عِلمتْ حنان أنك تزوجت الألمانية.....؟
- لأ.. طبعا.. الوحيد الذي أخبرته هو أنت.. كان لابد أن أخبرك احتراما لشكلي في نظرك.. أما حنان فالأفضل أن تفهم أن هذه الألمانية صديقتي وليست زوجتي.. يمكنني أن أتحمل اتهامها لي

بالانحراف عن اتهامها لي بالخيانة.. ضحيت بمنظري في نظرها مقابل أن تستمتع هي ببريق فكرة أنها أول زوجة لي.. تحملت سوء فكرتها عني مقابل الاحتفاظ لها بحلاوة الإحساس بكونها أول زوجة..

- ربما.. لا حلاوة.. ولا أحاسيس تحتفظ لك بها حنان.. الآن..

- يبدو أنك تملك بعض المعلومات..!!

- لست بحاجة إلى معلومات.. أنت تقول إنها اتخذت موقفًا ضدك وصممت عليه.. هل تظن أنها سعيدة بهذا الموقف...؟ هل تظن أنها تجلس في بيتها الآن مسرورة هانئة البال تكتب الشعر المرح..

- لا طبعا.. ولكني واثق أن حبها لي سيغفر لي عندها..

- هل هذا هو الغرور.....؟

- لا.. إنه الحب..

- وهل من يحب يفعل ذلك...؟

- وماذا كنت أفعل...؟ قل لي.. ما الذي كان يمكنني أن أفعله..؟ هل تعلم أنني وحنان جلسنا نحسب عدد السنوات التي سنظل ندخر فيها متطلبات زواجنا بإمكانياتها وإمكانياتي الحالية.. ووجدنا أننا لن نجلس في الكوشة إلا وأعمارنا خمسة وسبعون عاما لي.. وسبعون عاما لها..؟! في مثل هذه الأعمار يبحثون عن قبور وليس عن كوشة.. حياتنا يا أستاذ متوقفة تماما.. حياتنا محاك سر.. لا توجد نسمة هواء.. لا يوجد أمل.. كرهنا الصحف والمجلات وقنوات التليفزيون ونشرات الأخبار.. كلها أشياء كاذبة.. حتى وجوه الناس والمسئولين كاذبة لا نرى فيها سوى اللصوصية.. هذا البلد لا يعرفنا.. نحن غرباء فيه وأيتام ولقطاء وعبيد..

وراح يكمل وقد تهدجت أنفاسه:

- كل ما هناك أنني وقَعتْ في طريق بنت جميلة وثرية أُعجبتْ بي.. أعجبها شكلي وثقافتي.. اكتشفت أن تلك هي مؤهلاتي المعطلة.. عرضتْ

علي الزواج.. وقَفْتُ على بابها ولمحت في الداخل جنة موعودة.. جنة لم أرها من قبل وليس من المحتمل أن أراها في مكان آخر.. أعجبني أنها جعلتني اكتشف نفسي.. شبابي.. عالم جديد ليس هو عالم الهم والكآبة والشاي المر والقهوة السوداء والسهر المضني أطارد فيه الشعر والفقر.. عالم بعيد عن السهر الذي كرهني.. والمكتب الذي ملّ جلستي.. وأبي الذي يخرج صباحا وأنا نائم ويعود ليلاً وأنا أيضا نائم.. أبي الذي كان مشفقًا على جيلي الذي تخلت عنه الدولة.. فلم يتخل هو عني واستطاع أن يحافظ على عادة ليلية يتسلل فيها إلى غرفتي ليدس لي جنيهات معدودة تحت وسادتي..

لماذا لا تكبر حنان فوق هذا الموقف وتعتبرني قد توظفت لدى هذه الخواجاية..؟ موظف من بـين مهامـه المغازلـة، وتحريك المناطق الميتة لدي صاحبة العمل.. مناطق خامـدة يحتاج إيقاظها إلى رجل لا يعرف الخمـود.. رجـل يؤكـد لسيدته أنها دوما ستكون الرابحة في غرفة النوم..

(وصمت قليلاً كمن يتهيأ لجمع شتات نفسه)

- ماذا تريد هذه الخواجاية مني...؟ وما الذي أملكه لها من عطاء...؟ لقد اكتشفت أن ما يجب أن أعطيه لها هو نفس ما يجب أن أطرده من داخلي.. شهقة الاستغراب.. شبعة الجوع.. وزعقة الألم الرائع لانفضاض الصمت عن منطقة الخمول المسكوت عليها في عمري..

- وأنت.. ماذا تريد منها...؟

- لا أدري.. ولكنها الزعقة.. والشهقة.. والشبعة.. هي نفس الأشياء التي تبادلنا تصديرها فيما بيننا.. حالة تبادل مادي لم نتفق عليه..

- ولكنك قلت إنك اتفقت مع نفسك على أخذ الثمن.. أن تصبح ثريا من ورائها..

- سوف تسجلني شريكًا لها في مشروع تجاري يمتد من ألمانيا إلى الغردقة.. هل أرفض ذلك..؟ أليس هذا مكسبا..؟ إنها هي المكاسب التي سأفتح بها بيتي أنا وحنان.. لقد اختصرت رحلة قدرها خمسة وأربعون عاما في عامين..

- تقصد أن هذا هو المشروع الناجح..!!!
- الناجح جدا.. والمئات من الشباب يتمنونه.. ولكنهم لم يحظوا بالفرصة مثلي.. لعلمك.. أول واحد يحتج على هذا المشروع هو أول واحد يتمناه..

عدت به إلى أول حديثه:

- ما دمت قلقًا على حنان.. لماذا لا تحضر لرؤيتها..؟
- مشكلتي أن الألمانية لا تتركني في أي مشوار.. لم أزر أسرتي منذ عام.. لم أتمكن من الهروب إليهم ولو ليوم واحد.. عرفوا قصتي مع الخواجاية.. يسمعونها ترد عليهم في التليفون.. كأننا اتفقنا أن تتولى هي الرد على كل التليفونات..
- تقول إنك ستهجرها بعد عامين..؟ هل واحدة بتلك المواصفات ستسمح لك بهجرها.. ثق.. أنك مقتول منها.. مقتول.. مقتول لو هجرتها..

ضحك ثم قال:

- يبدو أن هذا ما سوف يحدث..

جمعتنا لحظة صمت.. وكان من الواضح أن هذا الصمت الذي عقد سحابته فوق سماعتينا كان سببه أنه يود أن يقـول لي: لماذا طلبني..؟ وأنا أحـاول الاستفسـار منـه: لمـاذا طلبتني...؟ وكل منا يحجم عن إطلاق سؤاله..

*****

وقبل أن يطول الصمت ويخرج عن حدود لياقة التحـدث بادرته فسألته:

- وما الذي ذكّرك بحنان الآن.....؟
- أمينة إبراهيم..
- هي اللي ذكّرتك..؟
- لا.. كانت تطمئن على عبر الهاتف.. عرفت منها أنك طلبت من فريد ذات صباح باكر أن يجعل حنان تطلبك، وحاولنا جميعا أن نعرف السبب.. إذ أن فريد تملّكه الخجل في أن يعرف منك سبب طلبك لها..

- أمينة لم تكن تتساءل أمامك.. قدر ما كانت تقدم لك خبرا..
- ربما.. ولكن القلق أصابني من أجل حنان..
- هذا لو كنت تحبها..عموما.. يجب أن أعمل على راحتك أنت وفريد وأمينة.. وحتى أعطي الفرصة لمصلحة التليفونات أن تكسب بعض الشيء.. سأفشي لكم السر حتى تتداولوه بالتليفون.. السعيد عبد الباري تقدم لخطبة حنان.. وطلب مني أن أجمعهما في لقاء عندي.. فالسعيد عندما تحدث مع حنان في هذا الموضوع..

قاطعني وسام هاتفًا:

- هل تحدث معها..؟. السعيد تحدث مع حنان...؟؟؟؟؟
- أجل.. تحدث معها.. وما الذي سيمنعه.. ألم يسألك عن علاقتك بها وأنت شجعته أن يفاتحها ويصارحها بما في عقله.. ثم عدت فقلت له أن يصارحها بما في قلبه..
- هل قال لك ذلك.. أيضا...؟

- أجل قال لي.. أتراه لم يحدث...؟

- بلى.. لقد حدث.. ولكن كنت أتمشى معه في الحديث، وأنا واثق أنه لن يتجرأ ويتحدث مع حنان..

- كيف تثق من ذلك.؟ وكيف تتهمه بعدم الجرأة..؟ وهو الذي صارحك بجرأة، حتى يفتح لنفسه الطريق لمفاتحة حنان.. أي أنك الذي سهلت له المهمة..

- وتحدث معها فعلاً...؟

- تحدث معها فعلاً..

- السعيد عبد الباري...؟؟؟

- السعيد عبد الباري.. أراك لا تصدق ذلك..

- أجل.. لا أصدق ذلك.. لأنه كان في حالة خجل شديد وهو يتحدث معي.. ما بالك عندما يتحدث مع حنان..

- دعنا من الخجل في الحديث.. فكّر في فلسفة الحديث.. لقد سجل السعيد نقطة لصالحه.. وسجل في نفس الوقت نقطة ضدك..

- إذن فقد استغفلني..

- لا.. لم يستغفلك.. ولكنه اقتحم غرورك بهدوء.. هل تظن أن حنان ستظل في انتظارك للأبد ويداها على خدها.. ستنتظر سعادة الباشا حتى ينتهي من غرامياته ثم يعود إليها.. تنتظرك حتى تشبع من الخوجاية.. أو الخواجاية تشبع منك ثم تعود إليها هاتفًا هيا بنا.. فتهتف خلفك.. أجل.. هيا بنا..؟ أليس هذا هو الغرور...؟

- لا يا أستاذ.. إنها الثقة..

- ثقة...؟ ثقة في من..؟ أو ثقة مِن من..؟

- ثقة في الحب الذي يربطني وحنان..

تعجبت لهذا الإصرار في التصريح بحب.. لا يتواكب هو معه بموقفٍ يعبر عنه..

- أي حب يا أستاذ..؟ ربما هذا الحب خلاص.. انتهى..

- انتهى...؟ إذن فما أفعله لن يجدي...؟ وأنا الذي أرهق نفسي من أجلها.؟

- ترهق نفسك.. أم ترهق الخواجاية.. لا تخدع نفسك يا وسام.. حنان أوشكت أن توافق على عرض السعيد.. السعيد يطاردها في كل مكان.. هذا هو الإرهاق الجاد..

لقد كان لدي إحساس ما أن عاطفة الحب التي تجمع حنان ووسام هي العاطفة الحقيقية وأن عاطفة الحب الوليدة لـدى سعيد قد لا تستحق أن يتحيز لها المرء بحكـم إحساسـه أن العاطفة الأولى بين حنان ووسام هي الأكثر عمقًا.. ومن ثـم يجب إنقاذها.. والإنقاذ لن يتأتى إلا بإفاقة وسام.. ووسام لن يفيق إلا بصفعة..

على كل حال..

لم أكن أعلم أنني بما قمت بتصديره من قلق وبثـه مـن رعب في نفس وسام جعله ينتقل إلى غرفة نومـه - حيـث تجلس زوجته - متكدرا مهموما ولما اقتربـتْ منـه وهـي تداعبه.. دفعها بعيدا عنه في غلظة.. ولما لم تكن قد عهدت منه تلك الغلظة قبل هذا الموقف؛ فقد لجـأت إلـى تكـرار

مداعبتها إما كي يستجيب وسام ويعتـذر لهـا.. أو ليكـرر غلاظته حتى تتأكد مما تراه..

ولما فعلت ذلك للمرة الثانية دفعها خارج الغرفة وأغلقهـا على نفسه دون أن يعطي أذنه لنداءاتها المتكررة:

- وساااام.. وساااام.. أُبن ذا دور بليس.. وسام.. وسااااام.. ولم يفتح لها وسام.. فقد كان يقضم أظافره في غيظ.. ويسترجع ذكرى ساعاته الجميلة التي كان يقضيها مع حنان يتبادلان الشعر والحب والمودة والتعاطف عندما كان يجلسان في بساطة على كرسي أكثر بساطة بحديقة تفتقد الأشجار والظلال.. فقد كان ظل الحب هو الذي يورف عليهما.. وقرطاس الترمس هو التسلية التي تتسللُ إليها أصابعهما برتابة يحركها انصرافهما إلى الحديث الشيق.. وعندما تنتبه حنان فجأة وهي تنظر في ساعتها..

- ياللا يا وسام.. قفص الحريم هيقفل..

يبادلها الابتسام.. وينهض معها سائرا حتى منزلهـا.. ولا يبرح مكانه حتى تنظر إليه من بلكونة شقتها التي صـعدت إليها توا..

راح وسام يتذكر ذلك.. وغير ذلك.. حتى أجهده التفكير.. وأجهدته الذكرى.. فانفجر في بكاء مرير.. مرير..

وهات يا حزن..

هات يا حزن..

هات يا حزن..

****

(٥)

كان الرنين – أيضا – متواصلاً هذه المرة.. كنت بعيـدا عن التليفون.. أسرعت بالتقاط السماعة.. وجدته هو: سـعيد عبد الباري.. الذي بادرني بعد السلام قائلاً بصوت حزين:

- أنا زعلان جدا يا أستاذ..

ثم واصل التوضيح قبل أن أسأله عن سبب زعله:

- كان لابد أن أعرف أن حنان لم توافق على شخصي..

صدقني كنت سأتقبل ذلك بروح رياضية.. ربمـا كـان سيداخلني بعض الحزن.. ولكن سرعان ما كنت سأنساه..

إضطررت لسؤاله..

- هل هي التي صارحتك...؟ أم عرفت من مصدر آخر...؟

- أنا الذي اكتشفت ذلك..

- كيف..؟

- بلا مقدمات سألني فريد إيهاب إن كنت أعرف ما الذي يجعلك تهتم بطلاب حنان في التليفون.. ادعيت أنني لم أعرف السبب.. وعرفت منه أنه ذهب إلى حنان برسالتك لها بأن تسارع هي بمحادثتك في التليفون.. وعرفت منه أنها فعلاً تحدثت معك.. ولا تنس يا أستاذ أنك لم تكن كعادتك في المناقشة معي.. كان يبدو لي أنك لا تصارحني جدا بما لديك، كنت تحاول إبعادي عنها.. فربطت كل هذه الحوارات ببعضها وذهبت إليها بسؤال صريح:

لماذا ترفضينني يا حنان...؟

لماذا ترفضينني يا حنان...؟؟؟

- أنت قلت لها ذلك...؟

- أجل.. عرفت ميعاد حضورها إلى النادي الأدبي.. ذهبت مبكرا.. فوجئتْ بوجودي.. أرسلت إلى التحية برأسها من بعيد.. ثم جلست

بجوار نيفين بدوي.. لم أجد وسيلة لانتزاعها من مكانها إلا بهمسة في أذن نيفين أنني أريدها على انفراد مع الآنسة حنان لموضوع هام.. وفعلاً قامتا معي وجلسنا بعيدا عن الحاضرين..

- واضح يا سعيد أنك تتعامل مع هذا الموضوع بإصرار شديد..

- لن أخفيك سرا فالأمر كذلك فعلاً.. ولعلك تعلم أنني عشت قصة حب سابقة.. أي أنني جربت الحب قبل ذلك.. وكم حاولت أن أبادل الشاعرة الفلسطينية الحب.. لن أجد فتاة تحبني مثلها.. ومع ذلك فهي مازالت تقف على باب قلبي ولم تدخله بعد.. أما حنان.. فشيء آخر.. إنها تتربع في أعماق قلبي.. ولذا فأنا أتعامل مع الموضوع بكل جسارة..

- واضح أنك تتعجل الأمور.. وهذه الموضوعات تتطلب التروي..

- هذا نفس كلامها لي..

- ماذا قالت لك..؟

- قالت إنني فاجأتها.. وأنني شاب تتمناه أية فتاة، ولكنها لا تستطيع أن تتخذ قرارا مصيريا كهذا بين يوم وليلة.. وأثناء حديثها وجدت أن الشاعرة نيفين بدوي توافقها الرأي.. ثم قامت نيفين بمحادثتي على انفراد بعيدا عن حنان..
- من الواضح أن لها رأيا لا تريد لحنان أن تسمعه..
- قالت لي نيفين إنها في حالة استغراب لأن حنان لم توافق علي فورا.. لأنها كانت تظن أن حنان سوف ترحب بي لتتخلص من سجنها العجيب في قفص الحريم.. بمعنى أن لسان حالها سيقول عذاب أي عريس ولا جنة هذا القفص.. وبما أن حنان لم تفعل ذلك فهي اتخذت جانب الصدق مع مشاعرها.. فلم تسارع باتخاذ قرار غير مدروس ولم تضعف أمام عرضي.. ولذا فإن نيفين تقول إن هذه البنت كبرت في نظرها جدا..
- تحليل رائع.. ولكن ما هو الرأي الأخير لحنان...؟

كانت تتحدث بكلام موزون كالذهب.. قالت لي:

- مادمت تريدني زوجة لك فإما أن أدخل منزلك بكل مشاعري الخالصة نحوك وكل حياتي المجندة لك، أو لا أدخل البتة..

- وهذا أيضا قول رائع.. وأنت.. ما رأيك..؟

- لست أدري.. لأنها قالت كلمة ما ـ بعفوية شديدة ـ مازلت حائرا في تفسيرها..

- أية كلمة..؟

- قالت: لا تتعجلني ففي قلبي جرح كبير.. قل لي يا أستاذ.. ألا يمكن أن تكون حنان مازالت تعيش في عالم وسام...؟ أقصد أنها تحبه.. وهذا هو سبب الجرح..

- قلوبنا يا سعيد صناديق مغلقة.. لا يعرف محتواها إلا ا .. هل كنت تثق أن حبيبتك الأولى ستخدعك وتتزوج رجلاً غيرك.. لقد أهملتك.. في نفس الوقت الذي تهمل فيه أنت حبيبة أخرى.. البنت الفلسطينية.. ولعل أغلب الصحبة كانت تظن أن وسام لا يمكن أن يغادر عالم حنان

مهما كانت الظروف.. وماذا حدث...؟ أنظر أين وسام...؟ وأين حنان...؟ أنت الآن تراهن على اللحاق بقطار حنان.. من يدري...؟ لعلك تلحق به.. أو لا تلحق.. فحنان هي الأخرى لا تدري أين يذهب بها قطارها..

- وماذا ترى يا أستاذ...؟

- أرى أن تتركها تتمهل في اتخاذ قرارها.. ولو كان القرار في صالحك فثق أنك حصلت على فرمان بالسعادة..

- إنني أفكر في شيء ما أود عرضه عليك..

- تفضل....؟؟؟

- إنها لا تملك تليفونًا..

- هذا أحد بنود لائحة قفص الحريم..

- أدري ذلك.. ولكني أقصد أنه ما دامت لا تملك تليفونًا بمنزلها فسوف أهديها تليفونًا محمولاً حتى يتاح لنا التحدث بسهولة..

أحسست أنه يتجه بحنان إلى شيء من الإحراج لا قِبل لها به.. وأنه سيضعها موضع المساءلة من أبيها.. ناهيك عـن معارفها الذين يعلمون أن دخلها لا يتيح لها السـيطرة علـى تكاليف المحمول..

- اسمعني يا سعيد.. في برتوكول الضيافة ليس من اللائق أن تقدم لضيفك جزءا من الحلوى التي أحضرها معه هدية لك.. حالات القرابة الشديدة هي التي تسمح بذلك.. إذن فليس من المستحب أن تقدم لشخص ما هدية بقصد الاستفادة منها معه أو مشاركته فيها.. وهديتك لحنان بها رائحة المصلحة.. وهي ذكية وستلمح ذاك.. وسترفضه مما سيسبب لك الإحراج..
- إذن فكيف أتحدث معها...؟
- أرأيت إذن أن مقصدك به أنانية.. لا يهمك سوى محادثتها.. أما الحرج الذي ستضعها فيه فشيء لم يدخل في حسابك.. لا تنس أنني فضلت أن يكون حواركما بالكتابة.. يمكنك بالكتابة أن تحرك مشاعرها.. وليس بالتليفون..

وتذكرت كلمات قالتها حنان:

" إنهم لا يعبأون بالمشاعر.. رغم أنها أقوى ارتباط.. لا.. بل هو الارتباط الحقيقي.."

لم أشأ أن أضع أمامه هذه الكلمات.. أو هذا الرأي الرائع في الحب والذي تؤمن به حنان أو ربما تعيش به.. ولكنني حاولت استخدام الكلمات التي أتى بها:

- ثم إنك يا سعيد تقول إن الفتاة أقرت أن في قلبها جرحا.. ألا يحق لها أن تعالج هذا الجرح...؟ ومن الذي سيعالجه.؟ وكم هو الوقت الذي يحتاجه حتى يشفى.. يا أخي.. ألا ترى أنك إذا قمت باستئجار شقة جديدة فأول ما تفعله هو إزالة آثار سكانها القدامى بالطلاء والتجديد.. أقول لك شقة.. فما بالك وأنت تنشد قلبا لفتاة.. أقول لك قلب.. شيء يتحرك ويحركنا.. أيها الشاعر.. الحب لغة.. والقلب لغة.. والشعراء يقولون للناس ما يعتلج في قلوبهم من هذه اللغة.. صدقني.. أنت لست بحاجة إلى كل هذه التحاليل مِني..

* * * * *

كان من الواضح أنه انتظر حـ أ مت حديثي.. وكـان ا ـدوء الذي استقبله به ينم عن ارتياحه ا قلت إلا أنه بادر قائلاً:

- لكني فكرت في موضوع الجرح هذا.. واكتشفت شيئًا آخر.. هذا الشيء هو: أنها ربما تكون مجروحة بفعل الزمن وخائفة من العلاقة الزوجية.. أي علاقة.. ربما بسبب السعادة المختفية في منزلها.. العلاقة الباهتة بين والديها.. أقصد أنها ربما تكون ترسبت في أعماقها عقدة من فكرة الزواج..

- بسبب سوء التفاهم الحاصل بين والديها..

- تقريبا..!!

- هذا أيضا تفسير أناني يا سعيد.. تماما مثل هديتك الأنانية.. تحليلك هذا أناني.. تريد أن تبعد الأنظار عن أن الجرح الذي تتحدث عنه حنان جرح عاطفي.. وتحيله إلى مشكلة اجتماعية..

(لاحظت أن حنان عندما استخدمت تحليلاً مماثلاً لعاطفـة سعيد نحوها ركنته إلى العكس.. أي أنه يلوذ بدفء العاطفـة تعويضا عن دفء الأسرة.. وابتسمتُ في مرارة متعجبـا أن

تكون مثل هذه التحاليل النفسية هي القاسـم المشـترك بـين الشعراء الذين يغوصون في وجداناتهم بحثًا عن الكنوز التي يطلبونها.. رغم أنهم كما أوضحت في السابق كتب مفتوحـة مقروءة لبعضهم البعض..)

وانتهت مكالمته لي دون أن نتفق على شـيء جديـد أو شيء محدد.. ولكني حاولت أن أتخيل الخطوة القادمة التـي سيخطوها سعيد ولكن خيالي لم يسعفني بماهية ما سيقدم عليه هذا المحب الحائر..

*****

ما إن عرفت أنها أمينة إبراهيم حتى تأكـدت أن قصـة سعيد وحنان سيكون موضوع هذه المكالمة.. فمن المؤكد أن وسام أفشى محتوى مكالمتي معه لواحـد فقـط.. والبـاقي معروف..

- أهلاً يا أمينة.. أين أنت أيتها الشاعرة...؟
- وأين سأكون في غير المكان الذي تعرفه.. داخل القفص.. قفص الحريم.. الحقيقة يا أستاذ أنا الحمد لم أمل من القفص.. القفص هو الذي ملّ مني..

- ربما يكون هذا السجن في صالح الإبداع.. في صالح الشعر..لا تنسى أننا جميعا استمتعنا بقصيدة:

(لا تسل عن أمينة)

(لا تسل عن أمينة)

(لا تسل عن أمينة)

- العصفور السجين لن يبعث إلا الغناء الحزين..

- لماذا لا تقولين: أحيانًا يبعث العصفور الحزين أجمل الألحان.....؟ ويمكنني أن أحدد تلك (الأحيان): عندما يفيض به الحزن.. ويتكالب عليه الهم.. أي إذا زاد الشيء عن حده.. انقلب إلى ضده.. الشعراء لا يكتبون شعرا جميلاً وهم سعداء.. يبدو أن هناك علاقة خفية لا يعلمها أحد بين الألم الثقيل والإبداع الجميل.. ربما تجدين أحد الشعراء يبدو أمامك بكامل صحته النفسية مرحا.. متفائلاً.. وعندما يخلو إلى نفسه يجد أن هذه النفس تجبره أن يكتب نزفًا وغربة وحزنًا..

إذن فهذا الشاعر المرح بداخله شخص حزين لا يلتقي به إلا عند الكتابة..

- يبدو أنني أحاول كسر هذه القاعدة.. المال حولني إلى إنسانة مهرجة.. طول النهار أمارس الشقاوة بروح الأطفال ضد أهل البيت.. أضحك.. أغني.. أرقص.. وعندما أغلق حجرتي على نفسي.. أبكي.. حتى أنني قلت لنفسي: إنها رفرفة الطير المذبوح.. لأنه لا أحد يحس بي.. حتى الأمل في حضور الفارس النبيل على حصانه الأبيض الجميل ليأخذني خلف ظهره ويطير بي إلى بعيد.. هذا الأمل لم أعد أفكر فيه..

تصور يا أستاذ حنان الرفاعي ترفض الزواج من السعيد عبد الباري...؟ أنا عندما عرفت ذلك من فريد إيهاب استولت على هستيريا الضحك في التليفون.. وقلت كلام كله عـبط.. دا بنت خايبة.. ليتها تتركه لي.. حتى أن فريد أحس بالحرج من هذا الكلام.. هل هنـاك فتـاة تـرفض عريسـا بهـذه المواصفات.. شاعر.. ويحبها.. ولديه المال اللازم للزواج..

- هل هذا رأيك الفعلي.. أم أنه العبط كما تقولين...؟

- أكيد.. هو رأيي الفعلي.. ولكني أحمد ا أنني قلته بعبط.. وإلا كان فريد أخذ مني موقفًا..

(تذكرت كلمة قالها لي وسام في التليفون وكنت أسـمعها لأول مرة:

(وإنت عارف إن فريد وأمينة على اتصال مستمر)

وكان من الواضح من هذه الجملة الاعتراضية أنه يشـير إلى أنهما متفاهمان.. أو متحابان..)

أخرجت من سريرتي داء الفضول:

- ولماذا يأخذ منك فريد موقفًا..؟

كانت خبيثة ولم تقع في شباك فضولي بسهولة:

- لا أدري..

لم أشأ تكرار السؤال حتى لا أحرجها وحتى لا أجبرهـا على بوحٍ قد لا تحبه.. فما قاله وسام صدفة.. وما قالته هـي الآن سهوا أو عفوا.. إنما أكدا لي أن هناك في الخفاء قصـة أخرى مثل قصة حنان ووسام.. قصة حب يحكمها الضـياع

واليأس وانتحار إرادة الذات في قلب شباب شـعراء سـموا بإرادتهم الأدبية وارتفعوا بها ـ على الأقل أمام أنفسـهم ـ ورفضوا كل مظاهر الزيف والخداع والضلال التي طغـت على سطح الحياة الثقافية والسياسية.. ذلك الزيف الذي جعل الكلمة العليا للأدعياء والعز والجاه للراقصـات.. وجعلـت عصا الحكمة في يد الراقصين بالأقلام.. حتى أن شابا مـنهم تساءل ذات مرة:

- هل هي صدفة يا سادة أن تكون أسوأ المقالات المكتوبة هي مقالات السادة رؤساء تحرير الصحف الكبرى..؟ هل هي صدفة أن يتفق كل القراء على قراءة كل ما في الصحيفة من أخبار"هايفة" وتافهة ولا يقربون مقال رئيس التحرير لأنه الأكثر هيافة.. والأكثر تفاهة..؟

ورد عليه أحدهم:

- لا.. ليست صدفة.. ولكنه اتفاق عبقري سري بين قلوب القراء وعقولهم عندما اكتشفوا جميعا أن هؤلاء الكهنة في معبد السياسة لا يكتبون باسم الشعب... فلماذا أقرأ مقالاً ليس مكتوبا باسمي..

ليس مكتوبا لي.. وهذا هو الاتفاق.. الذي لم يتم باتفاق..

*****

تلك ومضة من الألم الساهر في عيون هؤلاء الشـعراء.. والمرارة التي أذابها الزيف في أفواههم.. يعرفون ما يـدور حولهم ويرفضونه.. ولا يعرفون علاجا لما يدور في داخلهم ويحبونه.. في خيالهم الأمل في إصلاح حال أمة بكاملهـا.. وفي قلبهم الألم من سوء حال قلوبهم العليلة بالحب اليائس... يقلبون بين كفوفهم أحلى ما يملكون ليكتشفوا أنـه لا يحلـو للآخرين.. يعلمون أن بضاعتهم يجب أن تكون القاطرة التي تجر كل عربات البضاعات الأخرى.. ومع هذا فقد صـارت عربتهم في المؤخرة.. يؤمنون بما تلوكـه الألسـن أحيانًـا سفسطة ورغيا من أن الأدب الجميل والفن الجميل والشـعر الجميل هو عنوان الأمم الراقية.. ولا يجدون فـي أنفسـهم القدرة على تذكير هؤلاء الذين يسفحون الدموع حسرة علـى تخلفنا بأن سر هذا التخاف يكمن في ضياع البلابل المحبوسة في العربة الأخيرة.. وأن سر تباطئنا هو أن موتور القاطرة لا يصان إلا بالفكر الراقي والفن الراقي.. ومـا دامـوا قـد

وضعوا العلماء الحقيقيين والفنانين الحقيقيين الذين يعرفـون سر صيانة العقل والقلب.. وضعوهم بعيدا عـن المنصـة.. فلتتباطأ القاطرة.. وليقف القطار.. ولتنفذ كل الأمم إلى أقطار التقدم أمام أعيننا بصواريخ تمرق فتخطـف منـا الأبصـار وتصم فينا الآذان.. ونحن نكتشف كالبلهـاء فـي اللحظـات الأخيرة أنها قافلة التقدم قد مرت علينا.. وما بقى في آذاننـا منها ليس سوى صدى صوت الانطلاق..

فلشفقوا معي على هذا الـوطن المسـروق.. ولتصـفقوا لهؤلاء البؤساء من الشعراء المسروقين..

ولتستدعوا معي الحزن من أجـل الـوطن المسـروق.. والشعراء المسروقين..

*****

(٦)

كلهم ينادونه: بابا الشهاوي.. كلهم يحبونـه ويحترمونـه ويدللونه، ويصففون له شعره النـاعم الجميـل إذا انسـدلت خصلاته الهمجية..

عند السلام عليه تقبلة حنان وأمينة ونيفين.. بكل عطـر البنوة.. عند مرضه يبكين حول سـريره ويجلسـن تحـت أقدامه.. وكلهم إذا غاب عنه تكريم المؤسسات – وكثيرا مـا يغيب – يخترعون له حفلات التكريم..

يتداولون أخبار قصائده وكلما ا ومعانيها بفرح كأن كـل واحـد منهم قد كتبها بنفسه..

يسرعون إليه بقصائدهم ليفرح معهم.. فالفرحة أولاً.. ثم تهذيب بعض أوراق الشجرة بمقص الخبير ثانيا..

عرفوا أنه عاش للشعر فعاشوه معه.. وعرفوا أنه لا شيء في حياته سوى الشعر فأصبح هو وشعره جزءا من حياتهم..

قال بعضهم:

- إنه كان من الممكن أن ينخدعوا في ذلك العارض المرضي المفاجئ الذي ألم بهم عندما وجدوا أنفسهم دون غيرهم من الصبية يكتبون شيئًا مخالفًا، وعندما عرضوه عليه قال لهم:

- إنه الشعر.. لقد جاءتك يا ولدي تلك الكتابة المختلفة، لأنك شخص مختلف.. وبقدر ما سيرعاك ا .. يجب أن ترعى شعرك..

ومن هنا فقد انتبهوا لذلك العارض المرضي وعرفوا أنـه علامة صحة.. صحة الروح والسـريرة.. نعـم.. صـحة الروح والسريرة.

ومع شاعر كبير.. وقلب كبير.. وتجربة عذاب.. وعذاب تجربة.. كان لابد أن يصدر من قريتـه الصـغيرة إشـعاع كبير.. يجذب كل المحبين... ولأنه لا يملك أن يعطي سوى الشعر – لمن يريده – فقد ذهب المريدون ليتلقـوا ضـيافته البسيطة وكرمه الشعري الهادر.. تجمعهـم شـمس الشـتاء الدافئة في الحقول الخضراء الممتدة حول منزله.. أو تجمعهم نسمة العصاري الطرية يتجولون معها في نفـس الحقـول..

ويكون الشعر والشعراء هم صحبتهم.. حتى أنك تحـس أن أرواح كل الشعراء الذين ماتوا ترفرف حولهم..

ومن هنا كان سعيد عبد الباري ذكيا عندما أراد أن يجمع كل تلك القلوب في حفلة واحدة، راق له أن يقيمها فـي أول عودة له من السفر..

وبما أنه عثر قبل أن يجهز لحفلته على العنوان الصـحيح وهو تكريم الشاعر محمد الشهاوي؛ فقد حقق للحفلـة سـبل نجاحها.. واجتمعت القلوب حـول كـرم الشـعر.. وكـرم الضيافة..

لقد راق لسعيد عبد الباري أن يركب ناقته الحائرة، ويأخذ طريقه إلى الشهاوي ليعرض عليه حيرته.. تلك هي الخطوة لعلها قبل الأخيرة في جراب سعيد.. الخطوة التي حاولت أن أتخيل كيف ستكون..

قال له كل شيء.. لكي يخرج منه بأي شيء.. يخرج منه بنصيحة.. أو مشورة.. أو تـدخل.. فهـو يعلـم أنـه الأب الروحي لهذا الجمع الواعد من الشباب الشعراء.. ويعلم أنـه لا يتأخر في بحث مشاكلهم إذا طلبوه لبحثها.. ولكنه لا يعلم أن الشهاوي لا يمكنه إثناء قلب عن إرادته.. فالقلب وما يريد

عبارة متداولة بين العامة في حالات الحب.. ومع هـذا فقـد نقل سعيد – مسرورا – مباركة الشهاوي لهذه الخطوة أو هذا المشروع.. وأنه يتمنى لو وافقت عليه حنان.. فبيت للزوجية يكون له مذاقه الخاص لو كان يضم شاعرا وشاعرة.. كمـا نقل لي وعدا ضربه الشهاوي على نفسه أن يتحدث معهـا.. وحدد لي ما قاله عنها في معرض حديثهما المشترك عن أنه يؤمن بها كشاعرة واعدة كما يثق أنها ستكون زوجة واعـدة خاصة إذا كان الزواج – كما في حالتها – نهايـة لمتاعـب العزوبية.. وقد رد عليه سعيد لحظتها – كما في حـالتي أيضا – يا أستاذ..

قال لي الشهاوي أنه ما كاد يمضي يوما أو بعـض يـوم على لقائه بسعيد عبد الباري حتى هاتفه وسام الزواوي مـن الغردقة وهو يتلوى ألما وانزعاجا واستغرابا للخطوات التـي اتخذها سعيد – حتى الآن – في حملته من أجل الفوز بقلـب حنان.. ثم النتائج الأولية المترتبة على هذه الخطوات الدءوبة وأهم هذه النتائج في نظره أن حنان (تفكر) في العـرض.. معنى هذا أنها بصدد الموافقة بنفس القدر الذي يمكنها فيه أن تصل إلى عدم الموافقة.. وتلك هي الخطورة.. فلو وافقـت

حنان فهذا معناه أنها استخدمت نسبة كبيرة من قرار موافقتها في توجيه لطمة مقصودة إلى وسام، لأنه حطم قلبها مع سبق الإصرار والترصد.. وأن ما يقوله من أنه يفعل ذلك من أجل مستقبلهما محض هراء وكلام مرسل لا يجدر بالمرء – حتى – أن يسمعه".. ومن هنا فهو يعتبر أن قرار موافقتها يعتبـر قرارا منقوصا.. لأنه به جزء بدافع الانتقام والجزء البـاقي هو السعي للارتباط لتحقيق هذا الانتقام..

أضاف الشهاوي محللاً ما أدلى به وسام من أنه وقع فـي حيرة وأنه أحسن بحاجته – لأول مرة – إلى واحد من تلـك الموازين الحساسة ليزن به كلمات هؤلاء الشباب.. أو ليـزن به منطق شابين يتصارعان على قلب فتاة.. ثم يعود ليـزن منطق الفتاة نفسها.. ثم أضاف: إنه حتى الآن لو تأمل منطق كل منهم على حدة لرآه خاليا من الغبار.. فسعيد من حقه أن يتقدم لفتاته المأمولة وهو يرى أنه لا توجد أي عوائق تمنعه من ذلك بعد أن حصل منها ومن وسام علـى تأكيـد بعـدم الارتباط.. وحنان من حقها أن تأخذ فرصتها فـي الدراسـة والتأمل.. ووسام من حقه أن يزود عن حياضه التي غـاب عنها قليلاً وجاء من يحاول انتزاعها منه.. الشـيء الوحيـد

الذي ارتاح له وسام هو فكرة الحوار الذي سيمتد عاما فيمـا بين حنان وسعيد.. قال لنفسه وبعض من حوله إن هذا العام سيكون فرصة كافية لالتقاط الأنفـاس.. وهـدوء العاصـفة وعودة الحنين إلى قلب حنان التي تراه وقد ظهـر محـاولاً تخليصها من قلب سعيد.. ثم سيكون هذا العام الطويل فرصة لتسوية أموره مع زوجته الألمانية، التي لا تحس بشيء ممـا يجري حولها..

ثم أضاف الشهاوي نقلاً عن وسام قوله:

- إنه لولا ترتيبات قد تمت لسفره مع الألمانية بعد عدة أسابيع.. ولو لا أنه لا يستطيع هدم كل الترتيبات على الأقل لأسباب أخلاقية.. لاكتفي بهذا الجزء من التجربة وجعل الألمانية تمضي إلى بلادها بدونه، ومن ثم يبعث لها بوثيقة طلاقها.. ولكن لأنه لا يملك سببا قويا يجعله يتجه إلى طرح رغبته في عدم السفر إلى بلد زوجته وبرفقتها فإن هذا الطرح - فيما لو فعله – سيجعلها.. تشك في نواياه..

ولهذا فقد رضخ لهذا السفر الذي تم ترتيبه.. لقد تحولـت الرغبة العارمة في السفر إلى رضوخ.. وتحولـت السـعادة البالغة به إلى استسلام.. وذابت حلاوة الفرحة به وتحولـت إلى شيء ممرور جعله يسخط بينه وبين نفسـه علـى هـذا الظهور المفاجئ لسعيد الذي جاء حاملاً مشـروعه الأكثـر مفاجأة.. فلقد أيقن وسام أن مشروع سعيد لـم يكـن وليـد اللحظة.. أو وليد فكرة طارئة جاءته، وهو يعد قائمة ضيوفه في حفل التكريم" كأن.. يكون قد تذكر حنان الرفاعي عنـد كتابة اسمها، ومن هنا فقد قرر أن يتزوجها.."

- لا وا .. إنه إنما أقام الحفل خصيصا ليدعوها، وهو واثق أنها ستقبل دعوته، طالما أن عنوان الحفل هو تكريم بابا الشهاوي..

هكذا قال وسام هذا الكلام لصديقه الشاعر فتحي شـمس الدين ثم عاد فأكد:

- سعيد عبد الباري يرتب لهذه الحملة من شهور طويلة..

ويضاحكه فتحي شمس الدين:

- إذن فهو قد جاء غازيا ولم يأتِ زائرا..

ثم يواصل فتحي تهكمه:

- " أجئت تطلب نارا أم جئت تشعل البيت نارا..؟!..!! "

ولم يجد وسام أن لديه القدرة – حتى - على الابتسام أمام تعليقات فتحي؛ فانصرف قائلاً لصديقه إن لديه مقابلة هامة.. قال له ذلك وهو يعلم أنه لن يقابل سوى الحزن عند وسـادته قبل أن ينام..

وهات ما عندك يا حزن..

هات يا حزن..

هات يا حزن..

هات.. يا..

*****

(٧)

وكان السفر..

سفر وسام إلى ألمانيا..

وسفر سعيد إلى سلطنة عمان..

وكل واحد منهما يحمل في قلبه غُصة.. وفي عقله خُطة.. وحنان لا تحمل هما للاثنين.. فهي ترنو بـأدب إلـى حـب يحتضر.. وتتأمل بذرة لحب جديد نثرها السعيد بعفويـة ثـم مضى.. وهي لا تعلم إن كانت أرضها صـالحة لاسـتقبال ورعاية هذا الجنين أم أنها أطبقت كفها – أي الأرض – ولن تفتحه لرزق جديد..

حاول وسام أن يودعها فقام بعمل الترتيبات اللازمة.. لقد تمكن من التملص ليوم واحد تركته فيه الخواجايـة، وهـي قانعة أنه سوف يذهب إلى أسرته للوداع ثم يعود.. لم يكـن من الممكن له أن يقترب من القفص.. ولأنه اختار أن يكون

يوم الوداع هو نفس اليوم الذي يعقد فيه النادي الأدبي؛ فقـد بادر بزيارة أهله أولاً، ثم سارع إلى قصر الثقافـة لتتلقفـه الأحضان والأيادي التي غاب عنها وغابت عنـه.. وجـدوه أكثر وسامة.. وأبهى شياكة.. رغم نحافته الظاهرة.. شـعره المصفوف اللامع يوحي أنه ينفق عليه، كمـا ينفـق علـى سيجارته الجديدة وتليفونه المحمول.. لم يفقـد خفـة ظلـه وحركته السريعة وصياحه المتهلل لمقدم أحد الأحبـة الـذي يتجه إلى أحضانه مفتوح الذراعين لاستقباله.. تحلقوا حولـه وهو في وسطهم مشدود لذلك الترحاب المرح.. ومشدود بكل عواطفه إلى الباب الذي يجب أن تلجه حنـان الآن.. وكلمـا مضى الوقت ولم تدخل فتاته أخذه التـوتر.. وظـل تـوتره يتصاعد حتى أصبح من السهل قراءته.. وهنا همست نيفـين بدوي لفريد إيهاب أن يأتِ بوسام الزواوي إلى مجلسها البعيد عن حلقة الترحاب المنعقدة حوله..

قالت لوسام:

- حنان مريضة.. ولن تحضر لقاء هذا الأسبوع، وربما لن تحضر الأسابيع القادمة..

تدلى فَكه ذُهولاً.. وصوب بصره ناحية فريد إيهاب وكأنه يقول له:

- اسعفني بالأخبار ما الذي حدث لحنان.. وكأن الرسالة قد وصلت توا لفريد الذي بادره قائلاً:

- حنان: ليست مريضة بالمعنى المفهوم.. تستطيع القول أن مزاجها النفسي ليس على ما يرام.. إنها داخل القفص.. في حالة إعياء شديد.. كرهت كل من حولها..

وأكملت نيفين:

- كانت البداية هكذا.. حالة نفسية.. تستطيع أن تسميها اكتئاب.. لكن مع قلة الطعام والشراب جاءتها أعراض أخرى.. أنيميا.. هزال.. وأشياء من هذا القبيل.. يعني انتكاسة.. أنا زرتها أول أمس.. وسأزورها اليوم..

انبرى فريد إيهاب متأهبا لحديث من نوع آخر راق له أن يخلّص به هذا الحوار من دائرته الكئيبة:

- ومع ذلك فحنان يسيل الشعر منها كالشلال...

ودون مقدمات راح يتلو عليهم الجزء الذي حفظه من آخر قصيدة لها:

في المعركة..

أعزلْ ولفّاك غُربتك..

لكن بتقدر....

ِلساك بتقدر ع الكلام الفضفضة..

ما بقتش زيك..

أقدر على البوح اللي شاخت نبرتُه..

ولا عاد صهيل الحلم يرمح في الفضا..

ولا فيه إيزيس ح تلمني..

ما السر في عيوني اتفضح..

وشموخي بالذل اتجرح..

مات الكلام..

من فوق شفايف مضمومين ع الآه..

وحاضنين الندى..

خايفين ليخرج ما يلاقيش..

أي صدر يشقّه..

يتحول صدى..

مدبوح يا صوتي..

ولسه موتي بيوجعك..

مين.. يسمعك...؟

مين.. يسمعك...؟

مين.. يسمعك...؟

*****

هل كان فريد خبيثًا وهو يقرأ هذا المقطع بالذات من شعر حنان.. حنان التي تقول:" ما السر فـي عيـوني اتفضـح.. وشموخي بالذل اتجرح".. فإذا كانت عيونهـا قـد فضـحت سرها... فشعرها قد فضح حبيبها الذي جرح شموخها.. وها هو الحبيب العائد لرؤيتها قبل القيـام برحلتـه التاريخيـة لا يتمكن من أن يراها، ولكنه الآن يراها ويرى نفسه في هـذا المقطع الذي يقطر ألما.. فقد رأى نفسه" في المعركة: أعزلاً وملفوفًا في الغربة" وهو لم يعد يملك الكلام المرسل.. الـذي

لا تملك هي أن تفعل مثله.. فقد شاخت نبرة البوح.. وتوقف صهيل الحلم الذي كان يشق الفضاء...

"... مدبوح يا صوتي.. لسه موتي.. بيوجعـك... مـين يسمعك.. مين يسمعك.؟!!"

أخذهم الوجوم.. وكان وجومه مشوبا بالحرج.. فها هـي حنان من فوق سرير الكرب والإعياء تنزف شـعرا انهـال كالسهام المسنونة رشقًا في لحمه..

تحرك بعيدا عنهما وهو كاسف البال.. أدار لهما ظهـره ووقف ساهما.. لعله كان يبكي.. أو لعله كان يغالب البكـاء، وعندما عاد بعد دقائق اتجه إلى نيفين قائلاً:

- جئت خصيصا للسلام على حنان.. والاطمئنان عليها.. ليتها تعرف ذلك.. وأبلغيها سلامي وأنت تزورينها اليوم..

وأعطاها يده في سلام مباغت.. ثم نقلها إلى يد فريد فـي سلام مماثل.. وأسرع بالخروج وكأنه يتحاشى أن يضـبطه رواد القصر متلبسا بالبكاء..

*****

سعيد عبد الباري فعل نفس الشيء..

ذهب إلى النادي الأدبي حتى يلتقي بحنان ويودعها.. لقـد مر بنفس السيناريو وخاض نفس الحوار، ولكن هذه المـرة كان المتحاوران هما أمينة إبراهيم وفريد إيهاب..

قالت له أمينة سؤال مشاغب:

- من المؤكد أنك جئت تسلم على حنان وتودعها قبل السفر.. شكلك يقول ذلك..

حاول الهروب من السؤال وقد اعتـراه بعـض الخجـل متغاضيا عن تفسير ابتسامة ما لاذت بفم فريد؛ فقال لها وهو يستعير منها أسلوب المشاغبة:

- وشكلك يقول أنك تملكين قصيدة جديدة، ويبدو أننا سنسمعها الآن..

لم تتركه يفلت.. فلاحقته بسؤال أكثـر مشـاغبة خففتـه حميمية الابتسامة الصافية:

- وشكلك يقول إنك تهرب من سؤالي..

استسلم وقد ارتسمت علامات الجد على وجهه وهربـت ابتسامته المفتعلة:

- أنا فعلاً مسافر بين يومين.. اليوم هو فرصتي الوحيدة لتوديعها.. ولكني لا أراها هنا..

أوضح له فريد:

- هذا هو الأسبوع الثالث الذي لا تحضر فيه حنان.. إنها مريضة..

- إذن فهي مريضة جدا.. فأنا منذ أسبوع أعلم أنها مريضة..

تصدت له أمينة بسؤال مهم:

- ومن الذي أبلغك.. إنها لا تملك تليفونًا..؟

- فَهد السحار..

تساءل فريد إيهاب:

- ومن أين علم فهد بذلك.. هو نفسه لم يحضر النادي منذ شهر..

رد سعيد:

- فعلاً.. هو مشغول.. عنده عمل..

تساءلت أمينة بلهفة:

- فهد وجد عملاً..؟ توظف...؟

- أين يتوظف فهد...؟ الدولة لا توظف أحدا هذه الأيام..

هكذا أفهمها فريد.. الذي أردف قائلاً:

- فهد حصل على مقاولة دهانات شاليهات في الساحل الشمالي.. ترك الدنيا كلها حتى عروسه الجديدة وطار على هناك.. فهد تزوج حديثًا ودخل شقته مع عروسه وخلفهما كوم من الديون.. الرجل لم يصدق أنه صادف هذه المقاولة فطار ليسدد ديونه منها..

*****

كان الحديث عن فهد السحار الصديق الصدوق لسعيد عبد الباري هو المنقذ لسعيد من حرج وضعته فيه أمينة بأسـئلتها المباشرة.. وإمعانًا في التسلل إلى ما يبعدهم عن محاصـرته راح سعيد يكمل لهم معلومات قد لا يعرفونها عن صديقه فهد السحار - أول من أخذه من يده وجاء به إلى ندوتي - فهـد ذلك الرقيق المهذب ناعم الشكل والحركة والكلام، الـذي لا تحس أبدا أنه ابن قرية.. إنما يعتقد من يراه لأول مرة أنـه ابن أحد موظفي المدينة الميسورين.. هكذا سـيدرك إذا مـا

طالع منه شعره الناعم المنسدل ونظارته الطبيـة الرقيقـة، وملابسه المنتقاة بذوق راقٍ، ووجهه ذا الملامح الهادئة التي تراها دائما في حالة وئام مع النفس..

لقد تخرج من كليته التي درس بها التجارة.. والتي كـان نجما فيها بشعره الجميل وشكله الوسيم.. ومع تصاعد قصـة حبه لزميلته أصر أن يخرج من كليته بشـيئين.. الشـهادة.. والعروسة.. ولما لم تسعفه الدنيا بالمال والدولـة بالوظيفـة تخلي عن ملابسه الناعمة.. واستسمح بشرته الأكثر نعومة.. التي يغمسها في جرادل الدهانات والنقاشـة.. وتعلـم هـذه الحرفة التي لا يعنيها أن يزداد عمالها الكُثُر بشاعرٍ جـامعي واحد..

لقد قال لفتاتهِ - بنت الناس التي تحبه - عن السر.. وأنه في سبيل أن يحافظ على حبه لها وحبه للشعر اختار أن يقسو على نفسه ويأتي بالمال الحلال من هذا الطريق الصعب.. لم تستنكف فتاته – بنت الناس – أن يعمل فارس أحلامها نقاشًا حتى يأتي لها بالمال الحلال الذي سيفتح به بيت الزوجيـة.. كانت تقول لأهلها – أولاد الناس – إن فتاها يعمل في وظيفة مهمة بشركة سياحية.. يساعدها في ذلك أنه لا أثر للبقع في

أصابع فهد البيضاء الناعمة فقد تعلم أن يلبس قفازا.. ولا أثر لأدوات العمل في منزل فهد الذي اختار أن تكـون منـازل عماله هي أماكن خلع وتبديل ملابسه.. وهكذا تحول الـرزق الحلال إلى عورة يوارون سوءتها أمام النـاس.. فـاختلال الأمور شيء لم يصنعوه لأنفسهم، ولكنه أصبح حالـة مـن الفوضى وجدوا أنفسهم يعـانون مـن نتائجهـا.. وفوضـي الزلزال لا تحدث إلا عندما يحاول المرء أن ينجـو بنفسـه ويفر إلى بعيد.. وهكذا كان ما فعله فهد السحار باللجوء إلى مهنة النقاشة هو الفرار إلى بعيد.. وبذا أصبح ما يراه المرء الآن من فوضى ليس سوى تكرار حالة الفرار إلى بعيد التي يمارسها الكثيرون للنجاة بأنفسهم.. فقد حدث الزلـزال ومـا زالت توابعه تترى.. زلزال انقـلاب الهـرم الاجتمـاعي.. زلزال البحث عن موقع جديد بدلاً عن الموقع الذي ضـاع.. زلزال أن تحشـر نفسـك ضـائعا فـي عربـة مزدحمـة بالضائعين.. زلزال أن تطارد حلمك الذي فر إلـى بعيـد.. زلزال أن تمارس عملاً لم تكن تحلـم أنـك سـتتدنى إلـى ممارسته.. ثم ستنسى حالة التدني وتنهمك في حالـة جديـدة هي التمسك بهذا العمل...

هزت أمينة رأسها آسفة:

- فهد السحار يعمل نقاشًا...؟ هذا بدلاً من أين يحصل على دور فتى الشاشة في السينما.. ولد حبيب.. اللعنة.. ماذا حدث لمصر..؟

(ثم راحت تردد مقطعا من شعرها يحفظه الجميع:)

يا حلمنا

يا حلمنا الواقف على سن الأغاني المدهشة..

قالوا لنا مات اللي اختشى..

شيلوا بقي (الماسك) المخادع..

من وشوش الأغنيات..

فأكمل فريد:

الحلم.. مات..

تفرست فيه أمينة وهي تسائله:

- الحلم مات...؟ لم أكتب ذلك في القصيدة.. هذه الإضافة من عندك..

ابتسم لها فريد:

شيلوا بقَى (الماسك) المخادع..

من وشوش الأغنيات..

الحلم مات..

الحلم مات..

الحلم مات..

الكلمة بتقول لازم أكون هنا.. فيها تأكيد وفيها مزيكـة.. وفيها صدمة.. وفيها نعي لنا جميعا..

تدخل سعيد عبد الباري:

- أنا شخصيا ظننتها داخل القصيدة.. هي فعلاً في مكانها الصحيح.. الحلم مات.. الحلم مات..

ثم صمت لحظة وراح يردد:

الحلم مات.. الحلم مات.. أكملي.. أكملي القصيدة:

- سأكملها بعد سماع قصيدتك..
- أي قصيدة...؟
- القصيدة التي تقول أنت فيها:

يا ويلتي..

لا تعجبوا..

إن قلت إن قضيتي..

في الأرض ذم حبيبتي..

فراح يكمل لها:

ولسوف أطفئ فوق أنداء الهوى..

سيجارتي..

ولسوف أبدأ بالهجاء قصيدتي..

وأصوغ في عنوانها..

يا حب أنت خطيئتي..

لا تعجبوا.. لا تعجبوا.. لا تعجبوا..

* * * * *

ثم توقف فجأة: كفى.. كفى.. دعوني أحاول أن أنسى هذه القصيدة..

- لماذا..؟ إنها القصيدة التي عرفناك بها..

قال وهو يصوب نظره نحو الأرض:

- كل الناس عرفوني بها.. وعرفوا حبي الفاشل منها..

قالت له أمينة:

- أراك خجلانًا.. هل أنت الوحيد الذي فشل في حبه..؟؟!

- يبدو أن الفشل يطاردني..

وكأنه كان يشير إلى تجربته الوليدة التي بدأت مهمومـة وبدت كذلك مهمومة.. ولأن هذا الموضوع لم يعد سرا فلـم يمر وقت طويل حتى كانت شخصية حنان هـي الشـخص الرابع الذي يجلس بينهم..

شاغبته أمينة:

- ألا يمكن أن تكون حنان مريضة بالحب.. أقصد تحبك...؟

ابتسم في مرارة..

- حنان لم يصدر منها أي شيء يوحي بذلك..

قال لها فريد:

- أنا أعرف حنان جيدا.. حنان تحترم مشاعرها وأفكارها.. لا يمكن أن تقبل هذا الموضوع.. الزواج السريع.. الزواج المسلوق..

لاحقته أمينة متسائلة في سخرية:

- ما له الساق.. والتسبيك.. هل هو طبيخ..؟ الرجل سأل سؤالاً.. هل من المعقول أن يحصل على إجابته بعد عام...؟

حاول فريد أن يكبح جماح سخريتها، حتى لا تتحول مـن سخرية إلى تجريح فقال لها بأدب جم:

- أمينة.. لو سمحتِ أنا مازلت متمسكًا بأن حنان لها الحق في أن تراجع نفسها ألف مرة..

قاطعته:

يا عم تراجع براحتها.. أهو وسام سـافر مـع الألمانيـة وسعيد حيروح للفلسطينية.. وهي حرة..

ثم استأذنت بالانصراف متجهة إلى صالة المنتدى..

خيم الصمت على سعيد وفريد وهما يتابعانها بنظراتهمـا إلى أن عمد سعيد إلى الحديث فقال لفريد:

- : يظهر أن أمينة لها حق..

رد عليه فريد:

- أمينة بتحب حنان.. وخايفة على مصلحتها.. أمينة بتفرح بقصايد حنان، وبتقراها للناس كإن

هي اللي كتباها.. أنا مش عارف هي لما بتتكلم معاها في الموضوع ده بتقول لها إيه.. أكيد بتنزل فيها جامد.. لأن أمينة عملية وجريئة ومش بيهمها حد..

ركّز سعيد على المهمة التي جاء من أجلهـا وهـي وداع حنان.. وتسليمها عنوانه بسلطنة عمان..فانتحى بفريد جانبـا وأخرج له العنوان الموضوع في مظروف رقيـق صـغير وردي اللون، والمزين من أعلاه برسم لفيونكة ذهبية اللون، كتلك التي نراها على بطاقات الأفراح..

- دا عنواني في مسقط..

ابتسم سعيد:

- دا عنوان رومانسي قوي..

بادله الابتسام:

- أنا سايبه لحنان.. جايز تفكر تكتب لي أرجوك يا فريد.. سلّمه ليها. وعرفها إن أنا جيت علشان أودعها.. وعرفها إن أنا حارد عليها عن طريقك.. يعني حاراسلها على عنوانك.. وإنت تسلم لها الجوابات..

- لو حاكون بوسطجي الغرام.. وجواباتكم تنجح.. ساعتها حاكون مبسوط بمهمتي جدا..

- شكرا يا فريد.. (ثم بعد لحظة صمت)..

- يعني هي فعلاً مش جاية النهاردة.. يعني مفيش احتمال إنها تيجي...؟

رد فريد باختصار:

- ما اعتقدش.. هي فعلاً تعبانة..

وبعد دقائق كان سعيد يضع نفسه فـي المقعـد الخلفـي لتاكسي يتجه به إلى منزله وهو مهموم مهمـوم.. يسـتدعي الحزن الذي يعرف عنوانه جيدا:

فتعالَ أيها الحزن..

تعالَ أيها الحزن..

تعالَ أيها الحزن..

* * * * *

(٨)

أخذه الذهول والحزن معا..

الذهول لأنه لم يتعود على مقابلة كل هذا الجمـال دفعـة واحدة.. جمال الشوارع والعمارات.. والسيارات.. والبشر..؟ جمال الرصيف.. والأشـجار.. واللافتـات.. والمقـاهي.. والأطفال.. كل شـيء جميـل.. ومنسـق.. وهـادئ.. لا ضجيج.. ولا صياح.. ولا أبواق.. ولا تزاحم.. ولا عراك.. كل شيء مؤدب.. ومهذب.. ويحترم نفسه.. حتـى الجمـاد يحترم نفسه.. الترام جماد.. جماد يتحرك.. ويأتي لـك فـي ميعاده بالثانية.. والباص كذلك.. وكلاهما (الترام والبـاص) يثق فيك.. مطلوب منك أن تدفع ثمن الركوب فـي ماكينـة على الرصيف.. الماكينة تبرز لك البطاقة.. وتعطيك بـاقي الورقة المالية قروشًا معدودة لن تجد فيها قرشًـا ناقصـا.. يمكنك أن تركب الترام أو الباص بالبطاقة التي اشتريتها من

ماكينة الرصيف.. لن يسألك أحدهم عن البطاقة.. يكفي أنك سددت ما عليك وأنت الرقيب على نفسك.. فاهنأ بالركوب.. وانزل في أي محطة تعجبك.. فالنداء المبرمج سيذكرك باسم المحطة.. والمحطة التي تليها حتى تستعد وتقترب من باب النزول.. عندما تحاول أن تقترب من بابك ستجد الجميع يفسحون لك الطريق في صمت وأدب.. انزل براحتك فلن تصطدم بآخرين يصعدون في مواجهتك.. الاصطدام يحدث إذا كان الباب ضيقًا.. ولكن في حالتنا لا يوجد باب واحد.. فواجهة الترام كلها تعتبر بابا واحدا ينزلق وينطوي داخل نفسه في ثوانٍ ثم يعود حائطًا صلبا في ثوان أخرى قبل أن يتحرك الترام..

بصره لا يفارق كل المرئيات.. والألمانية بجواره تقرأ وسامته ولا تقرأ ذهوله الساذج الذي أخذه منها.. هي تظن أنه سارح يفكر في وطنه الذي غادره بالأمس.. ولا تدري أنه مذهول لما يراه حوله من جمال وأناقة هي لا تدري أن هناك جمالاً يشده وأناقة تأخذ لبه.. فتلك هي بضاعتهم المعروضة دائما والتي لم تعد تثير فيهم شعور الفخر

والتميز.. حتى أنهم لم يعودوا يلتفتون إلا لمـا هـو أفضـل منها.. وإن لم يكن موجودا فسرعان ما سوف يخترعوه..

قال لنفسه:

- خيالنا البسيط توقف بنا في الإحساس بالجمال عند حد معين.. ولأن ما أراه قد فاق الحد فلأعلن لنفسي والناس أن العيب لم يكن سوى في خيالنا.. خيالنا يا سادة مريض.. خيالنا أعور.. له عين واحدة لأنه بالكاد يرى بعض الأشياء.. خيالنا أعرج.. له ساق واحدة لأنه بالكاد يمر على بعض الأشياء.. وأبكم.. لأنه بالكاد ينطق بعض الأشياء.. وعليل الأذنين لأنه بالكاد يسمع بعض الأشياء.. وجاهل لأنه بالكاد يقرأ بعض الأشياء..

ثم عاد فقال لنفسه:

- لو سألوني عن سر تخلفنا.. فسوف تكون إجابتي الجديدة: السر هو أن كل حواسنا معطلة...؟ والدليل هو: هل المهندسون المصريون الذين صمموا ونفذوا مطار القاهرة يملكون حواسا حقيقية..؟ لا أعتقد.. لأنهم من المؤكد سافروا

وشاهدوا جمال وحلاوة مطارات أوروبا.. ومع ذلك لم يصنعوا مثلها.. إذن فحواسهم كانت معطلة.. وقس على ذلك أشياء كثيرة.. هذا عن الذهول الذي ألم بوسام الزواوي عندما انتقل بين ثلاث مطارات في يوم واحد.. القاهرة.. فرانكفورت.. ميونخ.. مدينة زوجته الألمانية..

* * * * *

أما عن الحزن الذي ألم به.. فهو حزن الشاعر الذي رسم في خياله صـورة رائعـة لوطنـه.. صـورة لـم يقابلهـا هناك..وقابلها في مكان آخر.. حزن الشاعر الذي تمنى شكل المدينة الفاضلة تتمتع بها بلاده.. ووجدها متعة للآخرين فـي بلاد آخر.. حزن صلاح جاهين الذي تمنى أن يرى في ريف بلاده:

"...... تماثيل رخام ع الترعة..

وأوبرا........"

حزن صلاح جاهين الذي اكتشف أن النزع سـتظل كمـا هي في الريف بؤرة للأمـراض.. وأن الأوبـرا سـيحرقها اللصوص.. وأن التماثيل الرخام التي ضاق بها مرسم المثّال

محمود مختار لم يجد لها مكانًا إلا في قاع النيـل.. فأهـداها لهذا القاع يأسا واحتجاجا وقرفًا حتى يحتفظ بها القاع للأبـد: شهادة تؤكد تراجع كل شيء جميل إلى الخلف في مصـر.. وبروز أي شيء قبيح إلى الأمام في مصر.. كـل مـا هـو مطلوب أن تشكك الآخرين في التعريف الحقيقي للجمـال أو القبح..

- لماذا أصبحنا هكذا.....؟

هز رأسه في أسى.. وعلى فمه ابتسامة مريرة.. لكزتـه الألمانية..

- لماذا تبتسم...؟

- قال لها (مصطنعا سببا وليدا) وكانا يجلسان في مقهى:

- تلك النادلة الجميلة التي تلقت منا مطالبنا من المشروبات لم تكلف نفسها التحرك لإحضارها.. الخدمة لدينا في مصر أفضل..

في نفس اللحظة جـاءت نادلـة أكثـر جمـالاً تحمـل المشروبات وتضعها أمامهما مع الفاتورة.. ابتسمت ريتا:

- هل هذا ما تريده...؟

لاذ بالصمت.. وفهم لحظيا أن الجهاز الصغير في جيب الفتاة الأولى أملى بلا ضجة اسم المشروبات ورقم المنضدة وقيمة الفاتورة.. فالمقهى ينتشر بين العمارات في الشارع.. ولا تكاد ترى مكان الإعداد والطبخ أمامك.. وكان في هذا الجهاز عامل الربط المتهادي بين الجالسين في هدوء.. والعاملين في همة..

قالت له:

- لو تخلصتم من كلمة أفضل وأحسن وأعلى.. ربما يتبقى لديكم الوقت لاكتشاف أن هناك من سبقكم.. تخيل حجم الضجة التي سيحدثها الجرسون عندكم لإملاء طلبات هذا الكم الهائل من الشباب الجميل الذي يجلس في هدوء.. يقرأ ويضحك ويحب ويتحدث.. ألم يلفت نظرك شيء ما في هذا المكان...؟

ابتسم وقال:

- أشياء كثيرة.. كثيرة جدا..

قالت له:

- أقصد الآن.. في هذا الشارع.. منذ متى لم تشاهد سيارة مرت من هنا....؟

تذكر هو أن السيارات انعدمت من فترة:

- ولا سيارة..

قالت له:

- التخطيط هنا يعتمد على الأخذ بما استقر عليه مزاج ورغبة وفعل دافع الضرائب.. فهذا الميدان الجميل بما يتفرع فيه من شوارع دافئة تحتضن تلك الكنائس القديمة جذب الفتيان والفتيات أن يلتقوا فيه فقد أحبوا المكان وأحبهم المكان وتطور الأمر بعد أن جاء من يقدم لهم الشاي من عربة أنيقة متحركة.. ثم تحولت العربة إلى محل صغير كان سببا في زيادة عدد الأصدقاء الذين يستمتعون هنا ويسهرون.. وبعد سنوات قليلة تم تعديل التخطيط لاحترام تلك المقاهي الحميمة وإبعاد مسار السيارات عنها.. وتحريك الترام من أسفلها.. حدث ذلك دون إعلان، ودون ضجة،

ودون تقديم صورة أو تمثال لمن احترم هذه الفكرة.. وقام بتنفيذها..

قال لها:

- حكوماتكم **ترم ا واطن..**

سألته:

- ما معنى مواطن...؟

ابتسم في مرارة وقال:

- لا أدري.. نحن في مصر نقول عن أنفسنا مواطنون.. أي أننا نعيش في هذا الوطن..

ابتسمت هي بالتالي:

- المهم أن يعيش فيكم الوطن..

زادت المرارة في حلقه وهو يتذكر اللصوص وسـارقي البنوك.. والهاربين بالأموال.. ثم الجـوعى فـي الطـرف الآخر.. والعاطلين.. وبائعات الشرف مقابل الطعام.. وهـز رأسه في أسى..

(وهات يا حزن.. هات يا حزن..

هات يا حزن..)

(٩)

قالت لها نيفين الشيء الكثير عن زيارة وسام للقصر باحثًا عنها.. وكيف ألمت به الكآبة عندما عرف أنها لن تحضر.. وكيف ألم به الحزن عندما عرف أنهـا مريضـة.. وكيـف سقطت دموعه عندما سمع آخر ما كتبته من شعر حزين..

سألتها حنان وهي تجفف دموعها بمنديل صغير:

- وسام لا يبكي بسهولة.. هل شاهدت دموعه...؟

لم تستطع نيفين أن تكذب:

- أنا واثقة أنه كان يبكي عندما فر من أمامنا وأدار لنا ظهره لدقائق طويلة ثم عاد إلينا لنلمح لمعانًا عند مآقيه.. وابتسامة خجل على شفتيه..

عادت فسألتها:

- هل زار أسرته..؟ للأسف هو غائب عنهم منذ عام..؟

طمأنتها نيفين:

- بدأ رحلة الزيارة بهم.. ثم أبقى الجزء الباقي ليتفرغ لمقابلتك.. ولما لم يجدك عاد حزينًا.. هل أفهم من حرصك على هذه التفاصيل أن وساما مازال بداخلك.. وبالتالي فإنك لا تعطين مشروع سعيد حقه من البحث والاهتمام..؟

صمتت لحظات ثم قالت بنبرة يعلوها الحزن:

- مشروع سعيد لم يتميز بشيء ما يحملني بعيدا عن الحزن.. ولكنه أتى فحرك الحزن الكامن في داخلي.. أتى فجدد أحزاني التي كنت أحاول تضميدها.. فمن الممكن للمرء أن يكون يائسا إلا من أمل يتخفى خلف ضباب الحزن والرجاء.. سعيد جاء فأزاح الضباب بنبل من ينير لي الطريق.. وقتل الرجاء بإنسانية من يحمل لي الأمل.. وحقيقة ما فعله أنه أشار لي: لا أمل خلف الضباب.. ولا رجاء من الانتظار.. من هنا

فقد تلقيت عرضه المغلف في سيلوفان برجفة من يراه مغلفًا بالديناميت.. وهذا ليس ذنبه قدر ما هو ذنبي.. والذي أزاد مرارتي هو إشفاقي على سعيد نفسه وقلة حيلتي في القفز إلى جواره في قاربه الرومانسي البريء..

قالت لها نيفين:

- إذن فأنت الفتاة التي طال بها الجلوس على شاطئ الرجاء.. ولما طال جلوسها تحولت إلى عاشقة لحالتها الشعرية الفريدة واستمراء هذا الجلوس.. فهي تكتب الشعر الحزين بحب.. وتعلن عن تمسكها بكرامتها بقوة.. ولما جاء لها فارس نبيل مادا لها يدي الحب والبراءة.. انزعجت.. لأنه سيحرمها من هذه الجلسة الرائقة الرائعة على شاطئ الضباب الحزين.. وتهز له رأسها في إباء: دعني هنا.. إذهب أنت..

ابتسمت حنان لهذا التحليل الشاعري من نيفين:

- لم يبق يا نيفين إلا أن تكتبيني شعرا.. لا أحد يستطيع أن يصف حالتي مثلك.. وبهذه الشاعرية..

لاحقتها نيفين:

- وبالتالي،، لا أحد يستطيع أن ينصحك مثلي.. العلاج الناجح يأتي دائما بعد تشخيص ناجح.. فهل تستجيبين لعلاجي.....؟

تساءلت حنان:

- وهل لديك العلاج...؟

ردت نيفين مسرعة:

- الواقع أن العلاج بيدك.. لا تلهثي خلف الوهم.. تمسكي بالواقع.. اتركي جلستك على كرسي الصبابة والعناء.. وتحركي قليلاً إلى الأمام.. فارسك البريء مازالت يداه ممدودتين.. مدي إليه يديك.. مشكلتك أنك عشقت ما أنت فيه من هم وكآبة.. مشكلتك أنك اقتنعت بهذا النصيب العجيب.. ورضيت به..

أطرقت حنان مليا.. ثم رفعت وجهها إلى نيفين وقد كساه الإعياء وسرت في قسماته الحيرة:

- لقد قلت لسعيد إنني إما أن أعطيه كل وجداني وحياتي دفعة واحدة وبلا تردد.. وإما أن اعتذر له إذا فشلت في إعطائه ما يستحقه كرجل سيشاركني عمري وأشاركه عمره.. وما توصلت إليه هو أنني لا أستطيع..

قالت نيفين:

- أعلم أنك صادقة مع نفسك ومشاعرك وأحاسيسك.. والنفس والمشاعر والأحاسيس كلها أشياء غير جامدة.. أشياء يحركها الانفعال والزمن والمعطيات.. من هنا يمكنك أن تطاردي فكرة المراسلة طوال هذا العام فربما تنجحان في الالتقاء بانفعال مشترك حول فكرة ما تكون هي الطريق إلى تواؤم الروح والفكر...

ابتسمت حنان في مرارة: تطالبينني بالتجريـب.. إعـادة توظيف الانفعال.. إحلال وتجديد الـروح بـروح جديـدة..

استحداث صيانة جديدة وقطع غيار أخـرى للمشـاعر.. لا أعتقد أن ا   زود المرأة بتلك الورشة..

نهضت نيفين وهي تهز رأسها آسفة متهيئة للانصراف:

- لن أستطيع إقناعك.. أنت صعبة..

******

ثم قالت لها أمينة الشيء الكثير عن زيارة سعيد للقصـر باحثًا عنها لتوديعها قبل السفر..

كانت أمينة ممسكة بمظروف صغير وردي اللون، يتحلى سطحه بوردة بارزة المعالم حمراء اللون:

- السعيد ترك اك عنوانه هنا.. حتى تردي على خطاباته..

قالت حنان:

- مشكلة سعيد أنه افترض أن الاستجابة لمطلبه هو الشيء المنتظر من الطرف الآخر.. من قال إنني سأراسله...؟ ولماذا يمنحني عنوانه من الآن..؟ كان يكفيه أن يكتبه في أول خطاب.. أم أن المطلوب منى أن أبدأ أنا بالمراسلة.؟

سألتها أمينة:

- ألم تتفقا على المراسلة...؟
- تلك هي الفكرة التي طُرحت.. ربما اقتنع هو بها ومن المؤكد أنه سيبادر بتنفيذها قبل أن يأخذ موافقتي..

تساءلت أمينة:

- كأنك تبحثين فيه عن عيب ما!!
- العيوب لا تحتاج إلى باحث ومباحث لاكتشافها.. عيوبنا غالبا ما تطل من دواخلنا منبئة عن نفسها.. ربما يكون العيب الأكبر في شخص ما هو صعوبة اكتشاف عيوبه.. وأكاد أجزم أن هذه الحالة تنطبق على سعيد..
- الرجل لا عيب فيه..
- إذن لماذا يعيش بيننا على الأرض...؟ مكانه ليس معنا.. مكانه مع الملائكة.. يا أمينة لا تنسي أنني عشت عمري أبحث في وسام عن عيب

واحد.. ولم أجد ما أبحث عنه.. وعندما كانت اللحظة المناسبة اكتشفت أن العيب نفسه هو شخص وسام مجسما أمامي وأمام الناس..

- وسام لم يخدعك.. وسام ابتعد عنك بخاطره ليفتح لك الطريق لاختيار الرجل المناسب.. فقد أيقن أنه لن يسعدك..

- ومن قال له إنني أريد شخصا آخر..؟ ومن قال له أن مفهوم السعادة عندي: ذهب ومفروشات وطعام وشراب..

- وما هي السعادة إذن...؟

- السعادة قلبان متحابان..

- في حالتك ووسام وبنفس منطقك الرومانسي فالسعادة قلبان جائعان يعيشان بعيدين عن الجيران لا يأكلان.. ولا يشربان.. ولا ينامان.. بل يهيمان ويعيشان طول الليل والنهار يتباوسان.. والنبي يا حنان.. أفيقي.. استيقظي.. انسي بطلات الروايات الرومانسية.. انسي فرجيني.. وجوليت..وليلى.. وعزة.. إلا إذا كنت

تريدين أن تضمي اسمك إلى أسمائهن.. فرجيني.. وجوليت.. وليلى.. وعزة.. وحنان الرفاعي.. وا اسم جميل.. خصوصا لما يكون الثنائي: وسام الزواوي.. وحنان الرفاعي.. فيه موسيقى.. أحسن من قيس وليلى.. وبول وفرجيني.. وروميو وجولييت.. والنبي تصحي.. أفيقي.. إنزلي عندنا هنا.. إنزلي الأرض.. حبيبك الآن في ميونخ.. عندما كان في مصر لم يزر أهله عاما كاملاً.. فما بالك وهو هناك.. متى سيزور مصر..؟!

امتعضت حنان من تلك الصراحة الفجة والتقريع القاسـي من صديقتها الشاعرة أمينة إبراهيم.. وأيقنـت أن اخـتلاف أسلوب الحوار بينها وبين صديقتهما الشاعرة نيفـين بـدوي يعود إلى المذاق الرومانسي وشفافية الخيال الذي تشـاركها فيه نيفين ولا تشاركها فيه أمينة التـي اختـارت الصـراحة والمواجهة والمكاشفة أسلوبا مختارا في تعاملها مع نفسـها.. ومع الناس.. يكفي أنها طردت الشاب الذي خطبها وسـلمته دبلة الخطوبة قبل أن يغادر منزلها وقبل أن تعود إلى أهـل

المنزل لتخبرهم بقرارها قبل أن تنفذه.. تلك هي أمينة.. هكذا وجدناها.. أو هكذا وجدت هي نفسها.. فهل أحزن منهـا...؟ ولكن مالا تعرفه أمينة أن وسام قال إن قصته مع الخواجاية مجرد جسر للعبور إلى إكمال قصتي.. إنها مجرد ظل شجرة راح يلتقط أنفاسه عنده حتى يعاود الانطلاق نحوى.. يمكنني الآن أن أطمئن أمينة وأطلعها على ما قاله وسام لمـن وثـق فيهم وأبلغوه لي.. ولكن من أين لي أن أضمن أن تصدقني.. فإذا كذّبتني فهي بالتالي تكذّب وسام.. وسأدخل معهـا فـي مهاترات وحوارات لن تنتهي بنا إلا إلى فراغ..

قالت لها وكأنها تنهي الحديث:

- لأنك شاعرة.. ولأنك تعانين من الشعر مثلي فقد كنت أظنك ستنحازين للمشاعر.. والحب. لا داعي يا أمينة لهذه القسوة.. أنت لا تعلمين ما يدور بداخلي.. لا تعلمين أنني أطفو كالريشة في فراغ سحيق.. لا طعم للدنيا في فمي.. لم أعد أحب الغد ولا أحب انتظاره لأنه لن يحمل لي ما يجعلني أحبه أو أنتظره.. إذن، ماذا تريدين مني....؟ أنا في الأصل غير موجودة.. لولا

الحب البريء الصادق الذي استمد منه الحياة في عيون تلميذاتي الصغيرات.. لولا خوفهن الصادق على.. وحنوهن البريء على.. ما خرجت من منزلي.. هذا هو الشعاع الوحيد الذي يربطني بالحياة.. وعدا هذا لا شيء حولي.. لا شيء يجعلني أفرح به.. لا شيء يدعوني أن أفرح له.. ربما ارتاح قليلاً إذا خرجت مني قصيدة.. ولكني سرعان ما أعود إلى ما كنت فيه قبل الكتابة..

لم تسكت أمينة وهي تتلقى ذلك البوح الحزين:

- بما أنك صادقة مع نفسك.. ولا تخدعين مشاعرك.. فلماذا لا نستخدم هذه الميزة ونسعى بها إلى أحد الأطباء...؟

- تقصدين طبيبا نفسيا...؟

- هو بعينه..

- سأكاف أمي أن تستدعيك إذا وصل بي الجنون إلى حافة الخطر.. شكرا لك يا أمينة على هذا الاهتمام.. شكرا يا صديقتي..

ونهضت حنان وكأنها تُنهي اللقاء.. لحظتها خرجت أمينة مندفعة في غضب حارت في تفسيره فيما بعـد.. هـل هـو غضب من نفسها أم من صديقتها..؟ أم هو غضـب علـى الحال الذي وصلت إليه حنان...؟ ولكن الحال الذي وصـلت إليه الصديقتان بعد هذا اللقاء كان من السوء والتوتر بشـكل دعا كل واحدة أن تخلو إلى نفسها معاتبة لائمة نادمة راضخة لطائر الحزن الأسود الذي طاف حوليهما ثم دخل قلبيهمـا.. وقبل أن تُسلم كل واحدة منهن رأسها إلى وسادتها كان أكثر ما استولى على رأس أمينة هو الغضب.. وكان أكثـر مـا استولى على قلب حنان هو الأسى والكدر والحيرة وراحـت دموعها السخينة تبلل وسادتها الحائرة..

وهات يا حزن..

هات يا حزن..

هات يا حزن..

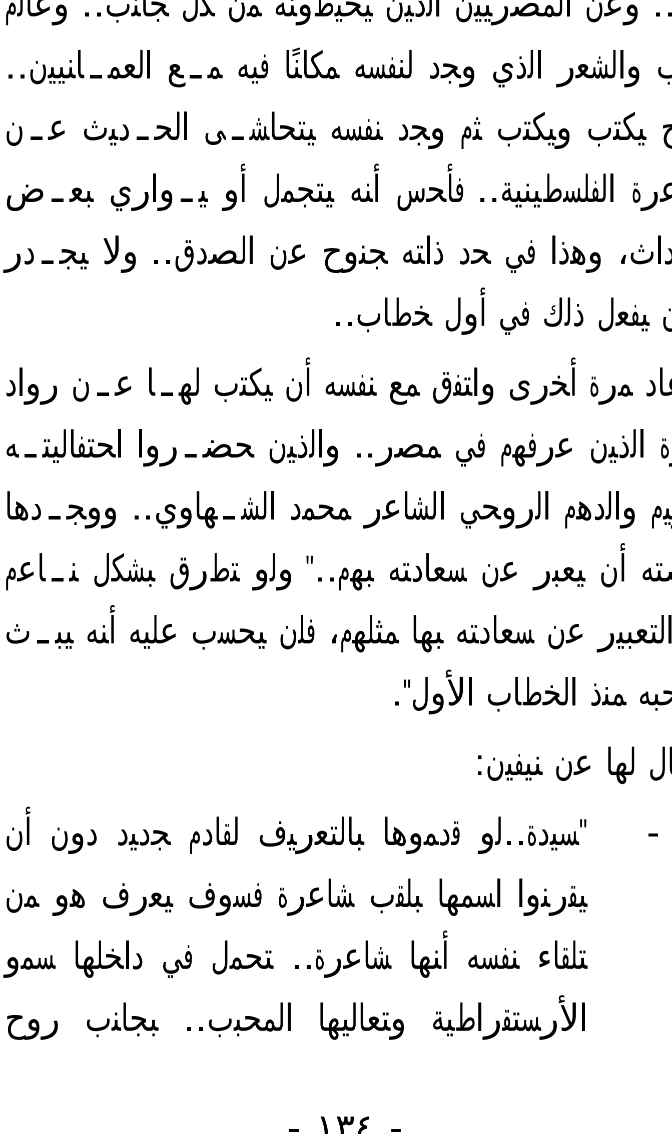
* * * * *

(١٠)

وأخيرا استقر على الصيغة المناسبة والأسـلوب الأمثـل الذي ارتاح إليه وهو يسطر خطابه الأول إلى حنان.. رنـت منه التفاتة إلى كمية الورق الممزق الذي احتل مكانه في سلة المهملات.. كل هذه مسودات..؟!!

ابتسم في استغراب وقال لنفسه: كنا نضحك علـى هـذا المنظر المتكرر على شاشات السينما.. المنظر الـذي يعبـر عن حيرة (البطل) وهو يبحث عن أرق المشاعر التي يجـب أن يزفها لحبيبته (البطلة) في خطاب..

اتفق مع نفسه أن يحكي لها أولاً عن نفسه.. ثم عاد فعدل عن ذلك.. - كيف أحكي لها عن طفولة معذبة...؟ - طفولة خلت من أب لم أره، وأم لم أعد أتذكرها.. ما ذنبها لتسـمع مني هذا الفيلم الهندي في أول خطاب..؟



عاد فاتفق مع نفسه أن يكتب لها عن حياته التي يحياها الآن.. وعن المصريين الذين يحيطونه من كل جانب.. وعالم الأدب والشعر الذي وجد لنفسه مكانًا فيه مع العمانيين.. وراح يكتب ويكتب ثم وجد نفسه يتحاشى الحديث عن الشاعرة الفلسطينية.. فأحس أنه يتجمل أو يواري بعض الأحداث، وهذا في حد ذاته جنوح عن الصدق.. ولا يجدر به أن يفعل ذلك في أول خطاب..

عاد مرة أخرى واتفق مع نفسه أن يكتب لها عن رواد الندوة الذين عرفهم في مصر.. والذين حضروا احتفاليته بتكريم والدهم الروحي الشاعر محمد الشهاوي.. ووجدها فرصته أن يعبر عن سعادته بهم.." ولو تطرق بشكل ناعم إلى التعبير عن سعادته بها مثلهم، فلن يحسب عليه أنه يبث لها حبه منذ الخطاب الأول".

قال لها عن نيفين:

- "سيدة..لو قدموها بالتعريف لقادم جديد دون أن يقرنوا اسمها بلقب شاعرة فسوف يعرف هو من تلقاء نفسه أنها شاعرة.. تحمل في داخلها سمو الأرستقراطية وتعاليها المحبب.. بجانب روح

بنت البلد وبساطتها اللذيذة.. عاطفة الحب في شعرها لا تنم بالضرورة على أنه حب متبادل بين رجل وامرأة.. ولكنه من الممكن أن يكون بين قيمة وقيمة.. بين روح وروح.. بين وطن ومواطن.. أما الهم الذي يسكنها ويعشش في حنايا شعرها فهو هم الوطن الذي من الممكن أن تلمح فيه همها نفسه.. لا تَشْتم الحكام ولكنها تمزق لحمهم بسكين من الضوء.. لا تلعن الزمن.. ولكنها تشكوه إلى نفسه.. جمالها الواضح الهادئ هو جواز مرورك إلى احترامها، وليس إلى أن تأكلها بعينيك..".

وقال لها عن أمينة:

- أتخيل دائما أنها على كرسي رئيس التحرير لجريدة معارضة.. لا تهتم بجمالها رغم وجوده وكأنه شيء لا لزوم له.. مفاتيح شخصيتها معلنة وجاهزة للاستخدام في أي لحظة.. بعض هذه المفاتيح تأخذ شكل مشارط الجراحين.. لا تحب الالتفاف حول المشاكل ولكنها تقتحم هذه المشاكل

بعزم الرجال.. بقدر ما يمكنها أن تنقدك فهي جاهزة لانتقاد نفسها بنفس الكيفية.. أما سلاحها في النقد فهي لا تلجأ إلا إلى السلاح الأبيض: النكتة..."

ثم قال لها أشياء متفرقة عن الشعراء الشبان الذين عـرج عليهم عروجا تعمد أن يكون خفيفًا إلا وسام الزواوي الـذي انفتحت شهيته للكتابة عنه قائلاً:

- " مشروع رجل أعمال ضل طريقه فأصبح رجلاً لا يعمل .. هو الإدانة الحقيقية لفوضى النظام وانفلات الضوابط الاجتماعية من معقلها والتأكيد على انقلاب الهرم.. فهذا المثقف الوطني الواعي تحول بفعل الردة عن الثورة إلى طاقة مهملة.. الشعر بالنسبة له طاقة أمل تومض في داخله ثم تنطفئ.. لا يلجأ إلى الشعر إلا مع اشتداد السأم واهتياج الكدر.. لذا فإن استغراقه في العبوس هو الشيء الذي ينذر بانهمار الشعر.. صمته الشديد لا يوحي فقط بعدم رضاه ولكنه يؤكد نيته للوثوب والانقضاض على شيء ما.. إنه صمت المتنمر

الذي يتابع فريسة ما في أحراش الزمن.. عملته اليومية التي يتبادلها مع الناس هو الحب.. يعطيه بكثرة.. ويتلقاه بشهية.. أخذنا الظن أنه طالته الهزيمة ورضخ للهم.. لم يكن هو الرضوخ بقدر ما كانت وقفة متأنية للاختيار والانتقاء.. كتب يومياته في دفتر الوطن.. وكونه لم يضع اسمه على رأس اليوميات فإنما ليقول لهم:

- إنها يوميات جيلي وعدة أجيال قبلي وعدة أجيال بعدي.."

لقد تعمد سعيد ألا يتطرق إلى الحالة العاطفيـة لوسـام.. وانفلاته من قفص حنان إلى قفص ريتا.. ولكنه عندما تسلل بنعومة إلى حديث يصبو إليه عن حنان حاول أن يوحي لهـا أنها دخلت في نطاق تحليلاته ضمن آخرين وأُخريـات وأن هذا من حقه وأن ما طال الجميع يجب أن يطولها..

- ".. يمكنك أن تقابل الحزن عند مرفأ عينيها.. وإذا كان للأسى ضوء ووضاءة فها هو يسكن عند أهدابها ويسكب الإعياء احمرارا في وجنتيها.. لا أحد يستفيد من الحزن إلا ملامحها

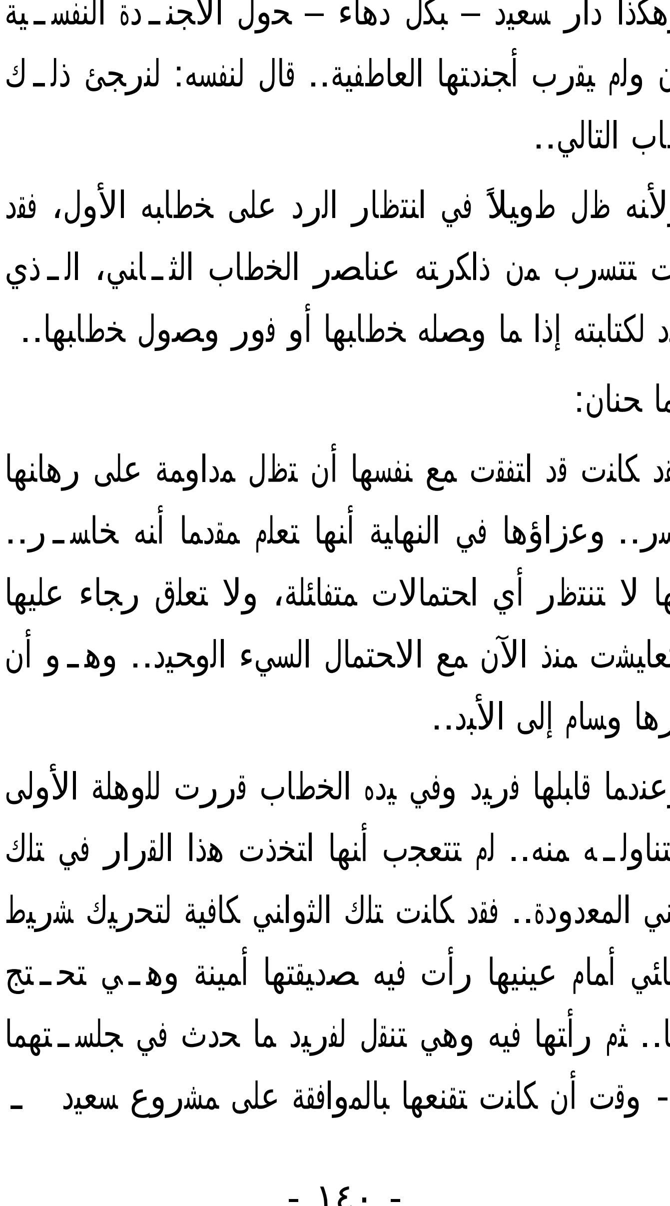
التي صار اكتمالها مرهونًا بمسحة خفيفة من لونه الشفيف.. لا تكتب الشعر.. قدر ما يكتبها الشعر الذي يقطع فيافي الشجن العاتي لاهثًا حتى يصل إليها.. لا تستدعيه قدر ما يدعو نفسه ضيفًا يتمدد بين ضلوعها.. هي لا تدري حتى الآن متى غزاها هذا الضيف.. ولكنها كانت تحس به يخربش وجدانها بأوراق الورد.. يتركها تضحك مع من حولها ولا يقترب منها في لحظات السعادة ولكنه سرعان ما يحاورها ويسكن أهدابها إذا ألم بها العبوس.. من هنا فهي تقول أن تاريخها مع الشعر بدأ منذ أن عرفت الحزن.. وكأن الحزن هو الذي أتى بالشعر.. أو كأن الشعر جاء ليخفف الأحزان.. أما أحزانها فقد بدأت منذ إن ضلت السعادة طريقها إلى منزلها.. فلم يكن منزلاً قدر ما هو نهر عريض لا تسكن الأسرة كلها على أحد شطآنه ذلك أن الأب اختار شاطئًا واختارت الأم الشاطئ المقابل.. وسبح الأولاد فيما بين الشاطئين عناء وبحثًا عن الرضا المفقود..

لم تعرف السعادة الكاملة.. سعادتها دوما منقوصة.. ولذا فقد دربت نفسها ألا تنهل السعادة الموقوتة – إذا ما جاءت – دفعة واحدة.. دربت نفسها أن تحتفظ ببعض منها تروح بـه عن نفسها إذا ما اشتد قيظ الكآبة والكدر..

كانت تقول:

- السعادة ليست كالمال.. فالمال يمكنك أن تقترضه من الآخرين إذا ما نقص عندك.. ولكنك أبدا لن تجد من يمكنه أن يقرضك بعض سعادته.. وأيضا: السعادة تزداد إذا أخذت منها.. عكس المال الذي يتناقص مع الأخذ.. ومن رحمة ا بنا: إن الحزن يموت.. ويحيا أحيانًا أو يتجدد ولكنه لا يخلد في النفوس... وأنا حزني ضيف مشاكس.. لا يتركني طويلاً.. ولا يسكنني طويلاً.. ولكننا أصبحنا في حالة معايشة.. قليلاً ما يحزن مني.. ونادرا ما أحزن منه...."

* * * * *



وهكذا دار سعيد – بكل دهاء – حول الأجندة النفسية لحنان ولم يقرب أجندتها العاطفية.. قال لنفسه: لنرجئ ذلك للخطاب التالي..

ولأنه ظل طويلاً في انتظار الرد على خطابه الأول، فقد راحت تتسرب من ذاكرته عناصر الخطاب الثاني، الذي يستعد لكتابته إذا ما وصله خطابها أو فور وصول خطابها..

أما حنان:

فقد كانت قد اتفقت مع نفسها أن تظل مداومة على رهانها الخاسر.. وعزاؤها في النهاية أنها تعلم مقدما أنه خاسر.. ولأنها لا تنتظر أي احتمالات متفائلة، ولا تعلق رجاء عليها فقد تعايشت منذ الآن مع الاحتمال السيء الوحيد.. وهو أن يغادرها وسام إلى الأبد..

وعندما قابلها فريد وفي يده الخطاب قررت للوهلة الأولى ألا تتناوله منه.. لم تتعجب أنها اتخذت هذا القرار في تلك الثواني المعدودة.. فقد كانت تلك الثواني كافية لتحريك شريط سينمائي أمام عينيها رأت فيه صديقتها أمينة وهي تحتج عليها.. ثم رأتها فيه وهي تنقل لفريد ما حدث في جلستهما معا - وقت أن كانت تقنعها بالموافقة على مشروع سعيد ـ

تلك الجلسة التي انتهت بنقاش متوتر عرضت فيه أمينـة أن تقوم حنان بعرض نفسها على طبيب نفسي.. ثم رأتهـا بـل وكأنها سمعتها تقول لفريد بما يشبه الرهان أن حنان ستوافق على الزواج من سعيد بعد أول خطاب يصلها منه.. وأن مـا تفعله حنان فيه من التجمل أكثر مما فيه من الحقيقة.. الحقيقة التي تقول إنه من العبث أن ترفض فتاة فارسا جاء فاتحا لها ذراعيه بكل الحب ليخطفها إلى بر السعادة..

لم تتناول حنان الخطاب لأنها شاهدت بعين الخيال صورة أمينة تقف خلف فريد وكأنها تغمز له قائلة: انظر.. ألم أقـل لك.. ها هي قد تخلت عن الأوهام التي قالتها لنا.. وأخـذت الخطاب.. وسوف تفتحه.. وتقرأه.. وترد عليه.. ألم يكن من الأسهل لها ولنا أن تتخلى عـن تلـك الرومانسـيات التـي أزعجتنا بها...؟

ومن هنا كان لذلك الشريط السينمائي الواهم فعله الغريب في نفس حنان التي أبت كرامتها أن تتراجع عما طرحته من تفسير لترددها في الموافقة على مشروع الزواج من سعيد.. التفسير الذي يقول إنها لا يمكن أن تسارع بالموافقة على هذا

المشروع دون أن تعود إلى مشاعرها فتسألها أو إلى دواخلها الجريحة لتبحث فيها عن مكان لهذا الفارس الجديد..

قال لها فريد:

- هذا الخطاب يعتبر ملكًا لك الآن.. ولا يعتبر ملكًا لراسله.. يمكنك أن تأخذيه وليس شرطًا أن تقرئيه.. احتفظي به مغلقًا ولكني أتمنى ألا يمتد رفضك إلى ما يفعله بعض الناس الذين يقومون بإعادة الخطاب – لمرسله - داخل مظروف دون أي تعليق عن سبب إعادة الخطاب.. أنا أرى أن هذا التصرف لا يعتبر إنسانيا، خاصة إذا كان الطرف الآخر رجلاً بمواصفات سعيد عبد الباري، الراكض في درب البراءة، متخطيا كل الحواجز محطما كل المعوقات في سبيل الوصول إليك..

قالت له:

- لا تجعل الخطاب قريبا مني.. فقد يغريني ضعفي بفض الغلاف في لحظة ما.. اجعله عندك كأمانة.. والأمانة تقتضي أن تتحكم في نفسك ولا

يغريك ضعفك أن تفتحه أنت في لحظة ما..
وتطلع عليه..

ابتسم لها وهو يعلم ما ترمي إليه حنان من أنه يحب تبادل أخبار الصحبة بل ويحرص على معرفة الجديـد منهـا أولاً بأول.. وقد استطاع أن يجذب إليه أمينة التي تسـطو علـى التليفون من غرفة أخيها ـ خاصة في الأوقات التي يـذهب فيها إلى المسجد لأداء الصلاة – لتشـاركه فـي تحليلاتـه وتساؤلاته حول أحوال الصحبة..

قال ا موضحا:

- ثقي أنني وأمينة نخاف عليك.. ونحبك.. وطالما أنك تحترمين مشاعرك ولا تخدعينها فأولى بنا أن نشاركك هذا الاحترام..

شكرته وانصرفت من أمامه مسرعة.. وهي ترى طـائر الحزن يحلق نحوها من بعيد.. لحظات ويستقر في وجـدانها ليسيل شِعرا متدفقًا لا تستطيع أن تحـول فيـه بـين يـديها والورق والقلم:

لماذا تواريتَ يا سيدي...؟

وكنت استويتَ على ساعدي..

أخَبأْتَ بين يدِي جمرةً..

لتنأى ثُرياك عن موعدي...؟

....

....

لماذا ابتعدتَ...؟

وأرهقت صدر البلاد دِنوا..

وبعدا..

لماذا ابتعدت...؟

وقدرت لي أن أموتَ..

كما.. كما عشت فردا..

لماذا ابتعدت...؟

لماذا ابتعدت...؟

إنها تخاطب السيد. من هو السيد.. هل هـو الحبيـب أم الحزن.. أم الرضا.. أم الوطن...؟

جرب.. وخُض في الريح..

موطنُك الجديد يعيد مأساة ابتدائك..

ينفث الأشعار فيك..

يريح رأس الأغنيات على دمائك..

......

أُمدد يديك..

وخُذ بلادا أودعتك خرائب النسيان..

أو طمست خرائطك القديمة..

واستعدتْ للرحيلْ..

خذها.. على عجلٍ..

واترك بقاياها لمن عبروا سواك..

لا تزاوجها وموتَك.. مرتين..

الشعر ينهمر.. والحزن يخف تـدريجيا.. وكلمـا سـال الشعر.. كلما تراجعت الأحزان..

على صفحة القلب..

حطت يمامة..

تعثرت من ريشها والهديلْ..

فأدركت أنك لست الجواد..

وأن صهيلك.. ليس الصهيلْ..

فصبرٌ.. جميلٌ..

وصبرٌ.. جميلْ..

تلتقط أنفاسها.. وتخاطب داء الحزن وداء الشعر.. تـرى من منكما الدواء...؟ الدواء لتلك الفتاة التي:

أتت تراود حزنها..

سكبت مسافتها..

وأفرغت الحقائب من سفر..

كل النوارس في الرحيل تشابهت..

إلا الذي..

حط الجناح بقلبها..

ثم انتحر..

من منكما أيها الحزن وأيها الشعر.. هـو الـداء أو هـو الدواء لتلك البنت التي:

لم تزل تلهو بشمسٍ..

تعقد القلب المتيم..

حول فارسها وتعلن..

أنه يوما سيأتي..

وعندما تجد أن شعرها يعلن عن مأساتها ترتجف للحظـة ثم تعود فتقول:

- وهل لي إلا أن ألتقط من داخل نفسي بعض ما فيها من حب وألم وضياع...؟ فأين المهرب وتلك بضاعتي ردت إلي.. فلتقرأوا شعري أيها الأصدقاء ولتتداولوه.. ولتفسروه كما يروق لكم أن تفسروه فهيهات هيهات أن أواري الدماء.. وجرحي واضح للعيان..

لا توجد.. أي مسافة..

انحسر المد..

داخل شريان العشق المذبوح..

مذ كان رحيلك يا آخر نورس..

لا توجد أي مسافة..كي..أصل إليك..

لا توجد.. أي مسافة

* * * * *

(١١)

راح يتململ وهو يراقـب بريـده بعـين الرجـاء..

وتحولت فكرة عمل محادثة تليفونية إلى فريد إيهاب إلى نوع من الدخول إلى امتحان صعب لم يستعد له بالقدر الكـافي.. فمن المؤكد أن فريد سيكون لديه خبر ما.. كأن يقـول لـه الخطاب وصلها.. أو أنه لم يتمكن من تسليمه لهـا.. وكلهـا أخبار لا تستدعي إظهار اللهفة والقلـق.. ولا تسـتدعي أن يصبح هذا القلق وتلك اللهفة مادة للتندر على موائد الصحبة، فإذا كانت مشكلته أنه لم يتمكن من كبح جماح عاطفته ويهدئ من سرعته وهو يتجه نحو حنان طالبا منها الزواج، فأولى به الآن أن يبدو رزينًا، وهو يعالج مسألة إيجاد صـيغة للفهـم والتفاهم فيما بينهما..

كانت صداقته قد توطدت بشاعر عماني يرتاد نادي الأدب ويشارك في كل ندواته وأنشطته بإصـرار شـديد.. اقتربـا

وتعايشا وحققا تقاربا قلبيا واقترابا ذهنيا يوحي للمشاهد أنهما على هذا الحال منذ الطفولة.. ولو تساءل أحدهما: لماذا حدث ذلك.؟ لاكتشف أن مذاقهما الشعري هـو سـبب التقـارب.. وأنهما التقيا على حافة البئر – نفس البئر – الذي يمـد كـل منهما بالماء - نفس الماء - ..

كانا قد اتفقا أنهما بجنوحهما إلـى الرومانسـية وحبهمـا لمدرسة وشعراء أبوللو إنما يقومان بتمهيد التربة في حديقـة الشعر لإعادة استقبال الأنواع العريقة مـن الزهـور، التـي راحت تختفي تحت وطأة تزاحم وصول الأنـواع الحديثـة، التي رحنا نستوردها من الغرب.. بل رحنا نستعيض عنهـا بأنواع من الزهور الصناعية، إذْ لم تفِ تلك الأنواع الهزيلة باستكمال جوانب الزينة..

كان الشعر والشعراء هو همهما المشترك في بدء علاقـة الصداقة.. وبعدها راح كل منهما يعيش في خلايـا الآخـر وراحت الهموم الشخصية تتسلل دون افتعال أو قصـد فـي حديثهما.. وأصبح الركون إلى رأي سعيد في موضوع مـا شيء يقوم به (حارب) في إعزاز.. كما أصبح للاطمئنان إلى نصيحة (حارب) شيئًا يؤديه سعيد بكل ارتياح..

عند عودته من الأجازة كان به فرح ظاهر.. وسعادة تلوح في حديثه عن مصر.. هذا ما بدا منه بشكل عابر أمام (حارب).. ثم عندما راحا يشاهدان معا وقائع احتفالية تكريم الشاعر محمد الشهاوي من شريط الفيديو، راح (حارب) يتابع باهتمام قصائد الشعراء، مختزنًا تساؤلات ترد على خاطره أثناء المشاهدة، مرجئًا طرحها على سعيد إلى وقت لاحق..

* * * * *

يبدو أن هذه التساؤلات ظلت معلقة بعد أن انشغل عنها (حارب) بتعليقات أخرى، وبعد أن انتهت جلسة المشاهدة التي استغرقت وقتًا، لم يسمح لهما بمزيد من التعليق والدردشة..

ولأن (حارب) كان يعلم الكثير عن دخول السعيد والشاعرة الفلسطينية (شُكران الأغا) إلى منطقة دافئة من الحميمية، فإنه بعد عودة السعيد لاحظ انحسار موجة الدفء بشكل ملحوظ وهبوب ريح باردة أتت من ذلك الشباك الذي فتحه السعيد دون إنذار.. (شكُران) نفسها أحست أن فتاها

غادرها مودعا بحالة ما وأتاها مصافحا على غير حالته.. فما كان منها إلا أن لملمت بقايا إقبالها المتلهف وانطوت علـى نفسها غير حريصة على حضـور كـل اللقـاءات مكتفيـة بحضور بعض الندوات المنتقاة.. ولما لم يحرك ذلك سـاكنًا لدى السعيد تحركت الدهشة لدى (حارب) الذي لاحـظ هـذا السيناريو الصامت..

ومن جانبه فقد تحاشى السعيد الحديث عن فتاته في مصر كأن يزف خبرا إلى حارب عن قرب ارتباطه بمـن هوايهـا قلبه.. لقد تحاشى ذلك بعد أن رأى نفسه مضطرا أن يتحاشى بنفس القدر الحديث عن (شُكران) وما يدور بينهما من برود وصمت، رأي السعيد أن حاربا قد قرأ علاماته ولم يبق سوى أن يعلق أو يتساءل..

لقد حدث ما توقعه السعيد و ها هـو حـارب قـد رأي الفرصة المواتية لذلك.. إذ كان مدخله الطبيعي وغير المفتعل هو توقف السعيد عن كتابة (آدم) في الديوان المشـترك (آدم وحواء) والذي تنسج فيه شكران أشعار (حواء)..

- ألا ترى أن حواء لا تستطيع أن تجيب إلا إذا سألها آدم...؟ ولا تستطيع أن ترد إلا إذا تحدث

آدم.. (شكران) يا سعيد متوقفة عن العمل في الديوان وأنت تعلم أن ما سوف يخرج منها متوقف على ما سوف تطرحه أنت.. أراك كسلانًا منذ عودتك من الأجازة..

- لا وا لست كسلانًا فأنا أكتب أشياء أخرى ولكني في حالة توهان..

- وما ذنب الفتاة..؟ لقد قالت لي أنها سألتك أكثر من مرة، وأنك أتيت لها بمبررات غير مقنعة.. هي نفسها تراك على غير حالتك..

- لها الحق.. وأنا وا في حرج شديد منها.. ولكني لا أدري ماذا أفعل...؟ وأنت تعلم أن الشعر لا يأتي بأوامر...

- ما أنجزتماه في الديوان يشير إلى أنكما نجحتما نجاحا كبيرا.. وتلك تجربة رائدة.. إذا حققتما لها النجاح الكامل فسوف تكون حدثًا غير مسبوق..

- أنا أعلم ذلك.. ولكن التبلد يقتلني.. ماذا أفعل..؟

إن هذه الكلمات التي يسمعها حارب من السعيد لأول مرة مثل (توهان) (وتبلد).. (وإحراج).. أعطته الإحساس المؤكد

أن السعيد يخفي عنه شيء ما.. وقد دعته فطنته أن يكتفـي بهذا القدر من النقاش مع السعيد في هذه الجلسة.. فتركه على هذا الحال وهو واثق أن السعيد في الجلسة القادمة سـيدخل باب البوح طائعا مختارا لا ليريح حارب من تساؤلات يراها معلقة فوق جبينه.. ولكن ليرتاح هو مما يعتمل في صدره..

وقد حدث ما توقعه (حارب) إذ أن السعيد تطرق تدريجيا إلى المنطقة التي كان يجب أن يلتقي فيها مع (حارب) نقاشًا وبحثًا وتحليلاً منذ وصوله من مصر.. ولم تمـض سـاعة واحدة على بدء اللقاء إلا وكانت حنان هي محور الحـديث.. وعندما حاول السعيد أن يذكر (حارب) بصورة حنـان فـي الحفل وجد أن حاربا يكاد يعرفها وأنه كـان يحمـل عـدة تساؤلات حولها عند مشاهدة التسجيل.. فقد اكتشف (حارب) أن المصور كان يتابع السعيد في الحفل - من حين لآخر - بالكاميرا مبتعدا عن المنصة الحافلة بالشعر والشعراء موجها آلته إلى الجمهور.. وكان من السهل أن يلحظ (حـارب) أن السعيد يحوم حول حنان بمشروبٍ أحيانًا.. مقدما لها شخص ما حينا آخر.. ثم استقر بجوارها على مقعد لصق مقعـدها.. بل يبدو أنه أوحي للمصور أن يجسم وجههـا (زوم) علـى

الشاشة حتى أن هذا التفرد في رسم وتجسيم ملامحها كـان ملفتًا للنظر لكل من يشاهد التسجيل..

قال له حارب: لا تصفها لي.. فأنا قد عرفتهـا قبـل أن تقول لي عنها.. فالكاميرا فضحت أشياء كثيـرة.. لا تخفـى على صاحب فطنة... هل أحببت هذه الفتاة...؟

- بجنون..
- وكيف تحب فتاتين في وقتٍ واحد.. شُكران.. وحنان..
- كانت حنان في قلبي بذرة تنمو قبل أن أقابل شكران.. ولكن هذه البذرة نمت وترعرعت في تلك الأجازة..
- كم مضى من وقت على وصول خطابك إليها.....؟
- أكثر من ثلاثة شهور..
- وماذا تنتظر...؟
- أنتظر ردها.. طبعا..
- لن يصلك رد منها..

- لماذا..؟

- لأن هذه الفتاة لا تبادلك نفس الحب..

- وكيف عرفت...؟

- من حديثك.. ومن لهفة أراها متأججة عند طرف واحد.. هو أنت.. وقولك إنها كانت مترددة في إعطائك كلمة موافقة.. واتفاقك مع صديقك أن تلجأ إلى حوار مكتوب لتقترب القلوب.. إذن أنتم تعالجون حالة ابتعاد قلبها عن قلبك.. هذه الفتاة متعلقة بحبيب آخر..

(أطرق السعيد مليا.. ولم يلم نفسه أنه حجب اسم ورسـم غريمه وسام الزواوي عن (حارب) ظنا منه أنه نـوع مـن التبسيط في السرد، وعدم تعقيد الحالة.. وحمد ا أن حاربـا ذاك الذكي اكتشف الأمر من تلقاء نفسه.. لذا فقد قرر السعيد أن يظل حاجبا لتلك المعلومة التي سيكون حجبها ـ في هذه الحالة ـ نوعا من التجمل وحفظ ماء الوجه..

ها هو حارب يواصل تحليلاته:

- لا أعتقد أنك الشاب الذي ترفضه فتاة ما بسهولة.. فلديك كل مقومات العريس المأمول..

ومعنى إعادة النظر في شأنك من فتاة هو أن هذه الفتاة لديها ما يشغلها عنك.. أو ما يجعلك التالي في الاختيار.. ولو كنت مكانك لصرفت النظر عنها فورا.. مهما كنت أحبها..

- هكذا ببساطة..

- قل: هكذا بكل العمق.. لن أُخرج لك من جرابي إلا نصيحة سمعت أبي يقولها لأحد أشقائي.. وقد كانت حالته مثل حالتك.. أمامه خياران.. شكران أو حنان.. قال له:

- خذ التي تحبك أكثر ممن أنت تحبها.. خذ تلك التي ستركع حمدا أن أعطاها رجلاً تحبه.. خذ تلك التي ستحس مدى الحياة أنها حصلت على كنز ثمين ستظل تعمل جاهدة على المحافظة عليه.. أما تلك التي ستتكرم بالموافقة عليك فسيظل لديها الإحساس الدائم أنك أنت الذي عثرت على كنز لم تكن تحلم به.. ستكون هي الملكة وأنت الوصيف.. لن تكون يوما ما ملكًا في بيتك..

(عاد السعيد فأطرق مليا وهو يتذكر ما قالته حنان: (إمـا أن أكون لك بكل وجداني وحياتي.. أو.. لا أكون)

- أأنت الذي تقول ذلك يا حارب..؟ أأنت الذي لا يتحيز للحب.؟ ظننتك ستقول لي حارب حتى تحصل على قلب حبيبتك..

(اتجه حارب إلى تخفيف الدراما الثقيلة بطُرفَة ما)

- لعلك اعتقدت أنهم أسموني (حارب) حتى أشجع الناس أن تحارب.. في حالتك يا صديقي لا جدوى من الحرب.. الحب شيء.. والحرب شيء آخر.. ولكنهما يشتركان في غليان المنطق.. أي منهما يفرض نفسه أحيانًا بلا منطق وبلا قواعد.. وبلا مسببات.. أنتم تقولون في مصر إن الحب أعمى.. وهو كذلك فعلاً.. شيء يلطشك في الظلام..

- وكتاباتك وأشعارك الرومانسية عن الحب.. والحبيبة.. وصورك المذهلة التي ترسمها لامرأة من الضوء يا حارب.. هل نسيت أشعارك...؟

(وراح السعيد يتذكر ذلك الرسم الخرافـي بفرشـاة الشـعر وألوان الورد لحبيبة (حارب).. تلك الحبيبة التي قال عنهـا فـي ديوانه:

رسمها: ترنيمة قمر في الأفق..

وقنديل ضوء يحاور المطر

وصوتها: آهات تسقي العصافير..

وفرصة لتأمل الينابيع.

وثغرها: احمرار بين أنفاس الرياحين

ينزف صمتًا.. وفلاًّ..

يومئ تحية للقمر..

ووجهها: ساطع في سماء الغياب..

وصدرها: يرقص كالطير..

ويطير مثل نورس.. ثم يختبئ..

وجسدها: نجمة ممهورة على لوحة السحب..

وسحرها: قطن الخد على زوايا البساتين..

وأنفها: ومضة سكين يطل من نهر الحسن..

وعنقها: ترتشف منه سنابل الهواء.. عطر الصفاء..

وعطرها: يمتد كالنخيل في الصحراء..
وخصرها: يتموج على عباب البحر..)
قال له حارب:

- ما لها أشعاري الرومانسية عن الحب والحبيبة.. هل تريد أن تقول لي أن حديثي عن المرأة يختلف عن أشعاري عنها...؟ وحديثي عن الحب ليس كشعري عنه..؟ ومن قال لك أن الشاعر هو الشخص الذي يسير هائما في الطرقات.؟ ومن قال لك أن الشاعر لا يجب أن يعنّف بائعا يسلبه حقه..؟ ومن قال لك أن الشاعر يحب ولا ينجب..؟ ومن قال لك أن الشاعر يتلو أشعاره على نفسه ليشْفَى ولا يذهب للطبيب..؟ لا تظلم الشعر حتى لا يظلمك الشعر.. امرأة الضوء التي تستغرب وجودها سوف تجدها يوما ما عندما تزيح شُكران الستائر في الصباح وتوقظك بكلمة حب.. سوف تقابلها في شهقة خوف تطلقها شكران إذا تعثر قدمك في السجادة.. إذا أردت أن ترى أن الشعر يحيطك من كل جانب فسوف تراه

من قلب يحبك لا قلب تستجدي حبه.. يا سعيد.. اعمل بنصيحة أبي.. تزوج من التي تحبك أكثر.. حتى وإن كنت تحبها أقل..

- أنت تجدد نظرية قتلوها بحثًا.. الحب بعد الزواج..

- سمها.. الحب أثناء الزواج.. أو الحب القادم حتما.. أو أرح نفسك ولا تبحث عن مسميات.. قل لي: لماذا لا تطلب صديقك فريد إيهاب هذا وتسأله عن مصير خطابك...؟

- فكرت في هذا.. وتراجعت..

- لا تتراجع.. وابحث عن نفسك جيدا..

تسلل إلى التليفون.. وطلب فريد بأصابع متوترة.. جـاءه صوت فريد متهللاً في بدء المكالمة.. خفيضا عندما سأله عن مصير الخطاب.. وكان من السهل أن يقرأ هذا التلعـثم فـي ردود فريد، وذلك التردد في البحث عن مخرج..

- فريد.. لا تبحث عن إجابة.. هل الخطاب مازال معك...؟

- أجل.. مازال معي.. هي التي طلبت ذلك..

- إذن.. هذا الخطاب مازال ملكي أنا حتى الآن.. أرجوك لا تسلمه لها..
- هل تحب أن أعيده إليك على عنوانك.....؟
- ليتك تفعل ذلك..
- سعيد...؟
- نعم..
- الزواج قسمة ونصيب.. كنا نتمنى أن تكون حنان من نصيبك.. ومن المؤكد أنها لم تكن تحب أن تخسرك... و...
- فريد..؟
- نعم..
- لست بحاجة إلى كلمات عزاء الآن.. دعني أعزي نفسي.. بنفسي.. تصبح على خير..

وضع السماعة... ووضع قلبه على كفه.. وراح يتأملـه بحسرة.. أيها المسكين الضائع.. ماذا تريـد..؟ الحـب.. أم الرضا.. أم السعادة.. لا حب.. ولا رضا.. ولا سعادة..

فهيا..

هيا بنا نحزن..

هيا بنا نحزن..

هيا بنا نحزن..

* * * * *

(١٢)

هروبه إلى المقاهي المفتوحة في ميونخ تحول إلى حالـة من العشق، رأى أن أجمل ما فيها من عطاء هو أن يتأمـل الناس.. إنه يمارس هذا التأمل منذ أن يغادر مسكنه وليس في ذهنه خطة معينة سوى أن يتسكع بلا هدى لفترة من الوقت، حتى إذا أخذه التعب نشد المقهى، ليقضي هناك ما طاب لـه من وقت ثم يعود..

قال لريتا:

- دعيني أتسكع.. أشاهد.. أتأمل.. أتوه.. وثقـي أننـي سأصل إليك آخر الليل سليما معافى..

ورأت هي أن خوضه لهذه التجربة التي يحبها سـيجعله يعود إليها بكثير من الأسئلة، وأنها ستضفي على مشـاهداته تفسيرات من شأنها صقل معلوماته..

كان يبتسم في مرارة لسؤال غريب يلح عليه..

متى تكون مدينة (بيلا) التي هي من أعمال محافظة كفـر الشيخ راقية ومتحضرة وجميلة ونظيفة، مثل مدينة ميـونخ، التي هي من أعمال مش عارف إيه...؟ (سأسأل ريتا عن اسم المقاطعة التي تتبعها ميونخ.. أظن أنها بافاريا..)

ويعود فيتساءل: (دون أن يتعشم ا صول على إجابة)

- كم نحتاج من السنوات لنكون في هذا المستوى...؟

ويتذكر أنه وقع في حِسبة من هذا النوع هو وحنان ليصلا إلى عدد السنوات التي سيقضيانها مـدخرين تكـاليف بيـت الزوجية على ضوء دخْلهما الهزيل المضحك، ووجدا أنهمـا يجب أن ينتظرا أكثر من نصف قرن...

قال لنفسه:

- وأيضا ستكون السنوات التي تحتاجها مدن مصر لتجهيز نفسها لدخول بيت الحضارة أكثر من نصف قرن.. لسبب واحد.. أن معطيات الناس والحكومة والموروثات عندنا هي الأخرى هزيلة ومضحكة، مثل مرتبي أنا وحنان..

يعود فيتخيل أن (بيلا) أصبحت بقدرة قادر ميونخ أخرى في مصر.. ها هي الأكشاك العشوائية في السوق، تحولت إلى بيوت زجاجية على أرضية من الرخام ولافتات كهربائية تطل على شارع لامع تتحرك عليه سيارات أكثر لمعانًا..

ثم يعود فيتخيل أن هؤلاء الرجال المتأنقين والسيدات والآنسات الفاتنات جميعا يكاد يعرفهم.. فهم أبناء مدينته (بيلا)..

من هو هذا الشاب الجميل الذي يطل علي من سيارته ويكاد يناديني باسمي...؟

أوه.. إنه فهد السحار.. إنه الخالق الناطق.. فهد السحار.. لعله في طريقه إلى مكتبه أو إلى إحدى عملياته أو إلى مصنعه الشهير، الذي اقترن اسمه باسم نوع من الدهانات عالمية الاسم..

ومن هذا..؟

فتحي شمس الدين..؟

إنه يتأبط ذراع فتاة جميلة.. يحدثها بلا توقف ويشير إلى المعروضات من الملابس النسائية.. وهي تضاحكه.. لقد اختارها قصيرة القامة مثله.. ها هي الفتاة تتجه إلى سيارتها،

وتقفز مرحة إلى مقعد القيادة، وهو يقفز بجوارها ضـاحكًا.. وينطلقان..

وهذا هو فريد إيهاب..

أجل.. إنه هو..

وتلك سيارته..؟

أوه.. مرسيدس يا فريد...؟

ليس أقل من ذلك.. فقد صعد سلمه المرهـق بخطـوات واثقة.. وتطور في فن الإعلان، حتى أن الشركات الكبـرى تنتظر ما تسفر عنه قريحته من تجديد..

وفي منزله وهو يستعيد نشاطه بحمـام سـاخن قبـل أن يجلس إلى ريتا ليحكي لها قصة يومه.. راق له أن يضاحكها ويحكي لها عن خيال الشاعر الذي سطا على عقله ونقله من ميونخ إلى (بيلا).. وكيف أنه كان سعيدا وهو يعـيش فـي (بيلا) الفاضلة بطريقته ساحبا كل الجمال والرونق والهـدوء وكل المعمار الراقي والتخطيط البديع خلفه من ميونخ إلـى كفر الشيخ في لحظة لا تتسم بالجنون، قدر ما تتسم بـأحلام اليقظة الشاردة.. وقال لها وهو يحاول التوقف عن الضـحك حتى تفهم كلامه..

- كنت في عز انهماكي في هذا الحلم أحاول الحفاظ على هذه الصورة الخيالية وكُلي خوف أن يدخل في" الكادر" صورة أخرى من الواقع لحمار هلْكان يشد عربة متهالكة أو لمجموعة من البائعين يصيحون بهستيريا على بضاعتهم المرصوصة على الأرض في غُلقان وقُفَفْ وأجولَة يظللها الذباب.. كنت أحاول الهروب من تسال صورة من هذه الصور إلى منطقة خيالي الشارد لتفسد على فرحتي بوصول مدينتي إلى هذه الحالة من الحضارة..

قالت له ريتا:

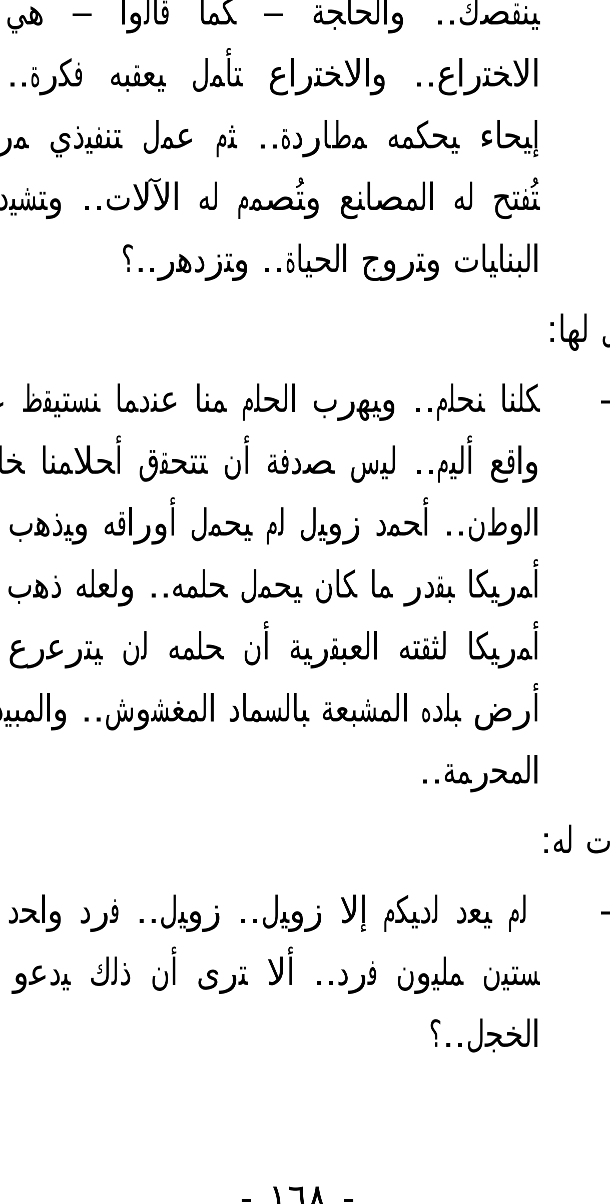
- لعلك سعيد أنك أضفيت على أصدقائك الشعراء هذه السعادة التي لم يروها..

أكمل لها:

- ولن يروها..

سألتْه:

- لماذا..؟ أليس الحلم لديكم هو أول الطريق.. الحلم هو التأكيد على مدى احتياجك للشيء الذي



ينقصك.. والحاجة – كما قالوا – هي أم الاختراع.. والاختراع تأمل يعقبه فكرة.. أو إيحاء يحكمه مطاردة.. ثم عمل تنفيذي مرهق تُفتح له المصانع وتُصمم له الآلات.. وتشيد له البنايات وتروج الحياة.. وتزدهر..؟

قال لها:

- كلنا نحلم.. ويهرب الحلم منا عندما نستيقظ على واقع أليم.. ليس صدفة أن تتحقق أحلامنا خارج الوطن.. أحمد زويل لم يحمل أوراقه ويذهب إلى أمريكا بقدر ما كان يحمل حلمه.. ولعله ذهب إلى أمريكا لثقته العبقرية أن حلمه لن يترعرع في أرض بلاده المشبعة بالسماد المغشوش.. والمبيدات المحرمة..

قالت له:

- لم يعد لديكم إلا زويل.. زويل.. فرد واحد من ستين مليون فرد.. ألا ترى أن ذلك يدعو إلى الخجل..؟

سارع ليفَهمها ما لا تعرفه:

- قلت لك عن زويل لأنه آخر من أضاء كلمة مصر أمام العالم.. ولكن عندنا فاروق الباز.. و مجدي يعقوب... و... و..

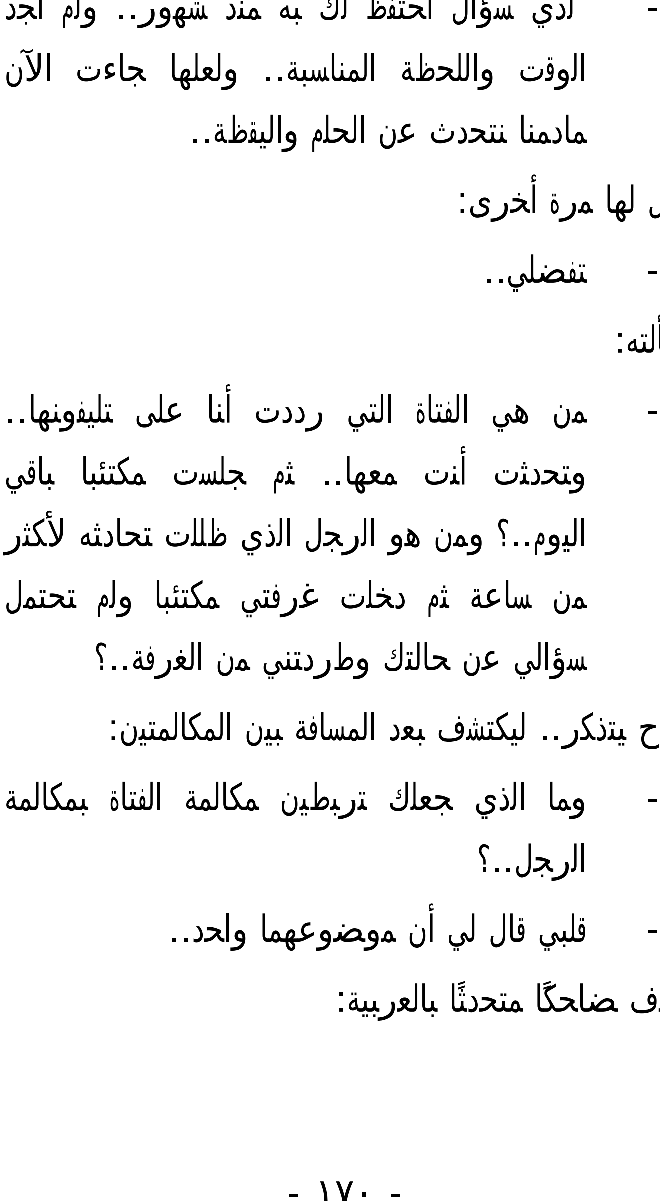
سارعت هي لتوقفه:

- o. k.. o. k.. ليس لديكم علماء معدودون بل لديكم عشرات العباقرة.. الذين قدموا للعالم عشرات الاختراعات، ولكن ماذا.. لو قلت لك عن عدد الاختراعات المؤجل تنفيذها في بلد مثل اليابان..؟ ألوف الاختراعات.. لن أضرب مثلاً بألمانيا حتى لا تتهمني بالتحيز لبلادي..

- ولدينا أيضا.. (قالها ببعض الخزي) ولكن الإمكانيات لا تسمح بتنفيذها.. (قالها ببعض الندم)

- ألم تقل الآن أن أحلامكم تطير عند اليقظة.. من الواضح أنكم بحاجة إلى التعرف على الخط الفاصل بين الحلم واليقظة.. قل لي يا وسام..

- تفضلي..



- لدي سؤال أحتفظ لك به منذ شهور.. ولم أجد الوقت واللحظة المناسبة.. ولعلها جاءت الآن مادمنا نتحدث عن الحلم واليقظة..

قال لها مرة أخرى:

- تفضلي..

سألته:

- من هي الفتاة التي رددت أنا على تليفونها.. وتحدثت أنت معها.. ثم جلست مكتئبا باقي اليوم..؟ ومن هو الرجل الذي ظللت تحادثه لأكثر من ساعة ثم دخلت غرفتي مكتئبا ولم تحتمل سؤالي عن حالتك وطردتني من الغرفة..؟

راح يتذكر.. ليكتشف بعد المسافة بين المكالمتين:

- وما الذي جعلك تربطين مكالمة الفتاة بمكالمة الرجل..؟

- قلبي قال لي أن موضوعهما واحد..

هتف ضاحكًا متحدثًا بالعربية:

- قلبك..؟ قلبك قال لك..؟ أنتم أيضا أيها الألمان قلوبكم تقول لكم مثلنا.. حتى هذا الموضوع دخلتم فيه...؟ ألا تتركون لنا شيئًا ننفرد به..؟

سألته:

- ماذا تقول.؟ من فضلك تحدث بالإنجليزية.. ومع هذا فالواضح من سخريتك أنك لا تصدق موضوع قلبي هذا..

هتف مرة أخرى بالعربية:

- يظهر إني تزوجت شيخة.. شيخة ألمانية..

هبت فيه صائحة باحتجاج:

- من فضلك.. لا تحدث نفسك أمامي.. واحترم مشاعري.. ولا تهرب من سؤالي..

ثم خرجت مندفعة من الغرفة إلى الصالة، آخذة في إشعال سيجارة، ووجد نفسه في لحظات متورطـًا في ضرورة الإجابة عن سؤال لم يكن في حسبانه أنه سيواجهه..

التقط أنفاسه وراح يفكر في إجابة لا يبدو فيها أنه يكذب.. فهو أمام حالة نسائية عجيبة الشكل.. تفهم ما يدور بداخله..

وتفهم ما يقوله لنفسه بغير لغتها.. وتتعامل مع القلوب كأنهـا ساحرة.. وتدخر في قلبها الأسئلة الهامة لشهور طويلة.. إذن فهي ذكية ولماحة وصبورة وتفهم ما تفعله.. لقد كان يظنهـا تجيد فن الحب فقط.. وكان يظن نفسه متميزا عنها في الذكاء واللماحية..

(ذكاء إيه.؟ وهباب إيه).!! هكذا همس لنفسه.. لقد أهنتها في هذا اليوم.. وأغلقت دونها الباب.. ولم أصالحها وأشـرح لها ما كان يضيق به صدري.. لماذا لم يدر بخلدي ذات مرة أن هذا الموضوع لا يمكن أن يظل معلقًا إلى الأبـد دون أن تتناوله بالتساؤل...؟ كيف أخذتني نيتي الحسنة وأنا مغمـض العينين إلى هذا الصمت الشائك الذي ظننتـه قـد أُخـرس للأبد..؟

تسلل إلى الصالة بهدوء.. جلس قبالتهـا صـامتًا.. أشعل هو الآخر سيجارة.. عاد فانتقل للجلوس بجوارها راح يعبث بأنامله في خصلة الشعر التي تتدلى على جبينها.. لـم تحاول أن تمنعه.. وتقبلت ما يفعله بحب.. ابتسم لها.. بادلته الابتسام.. اعتدل في جلسته.. وبدا هادئًا متزنًا وقد صـوب

نظره إلى الأمام كأنه يتفحص شيئًا ما.. شيئًا غيـر موجـود أمامه.. شيئًا في داخله.. وراح يتحدث بصوت هادئ..

- اسمها حنان.. شاعرة.. شكلها جميل.. وشِعرها جميل.. هادئة.. لا تثور أبدا.. يقولون إن ثورتها ترتد إلى داخلها.. لذلك فهي تستسلم كثيرا للمرض.. لا نملك تاريخًا محددا لدخول الحب إلى قلبينا.. ربما كان منذ اليوم الذي التقينا فيه.. أو ربما منذ استمعت إلى أشعارها واستمعت إلى أشعاري.. أو ربما منذ قررنا أن نشترك في كتابة قصيدة واحدة.. أو ربما منذ أن كتبت لها قصيدة... وكتبت عني قصيدة.. قررنا أن نحلم سويا.. اتفقنا أن نبتعد عن الناس ونحن نعيش في زحامهم.. قررنا أن نحتقر المال الذي لا يأتي لنا.. تخرجنا من الجامعة.. لم نشأ أن نعتبر التخرج نقطة هامة في حياتنا.. فالجامعة كانت أفضل.. فتناول المال من أسرتينا له مبرره وخروجنا من المنزل له مبرره.. وغيابنا خارج المنزل له مبرره.. كنا نرى ضياع ما بعد

التخرج قبل حصولنا عليه.. على الضياع.. وعلى التخرج.. سمعت أن خطيبا تقدم لها.. حاولت أن أعرف منها فأنكرت.. سمعت أن خطيبا آخر تقدم لها.. حاولت مرة أخرى أن أعرف منها.. فأنكرت أيضا.. فكرت أن أتقدم لخطبتها.. اكتشفت أنه مشروع مجنون.. فلو أمكنني تدبير ثمن هدية الخطوبة.. فماذا بعد الهدية..؟ إذن فسوف أدفع ثمنًا بخسا لا يجب أن يغريني أنها سترضى به.. لأنها تملك لي حبا ليس له ثمن.. صارحتها بأننا في مأزق.. لا توجد أعمال في انتظارنا مهما طال بنا الانتظار فالخريجون من كليات الآداب يجب ألا يحزنوا لقلة الطلب عليهم بل لانعدامه وهم يرون أن الأطباء والمهندسين وقعوا قبلهم في نفس الأزمة.. أزمة البطالة.. راحت حنان تبحث لي ولها عن مكان.. أي مكان.. إلى أن عثرت على عمل هزيل بمدرسة بنات بمقابل مضحك.. ومع ذلك فقد أتينا بالورقة والقلم وجلسنا نحسب عدد

السنوات اللازمة لتدبير عش صغير على ضوء جنيهاتنا المعدودة.. اكتشفنا أننا ربما نكون قد ودعنا الحياة قبل أن تكتمل المدخرات.. قررت أن أفسح لها الطريق.. لجأت إلى حب مصطنع يشغلني عنها زورا.. ويشغلها عني احتقارا.. لم تنطل عليها حيلتي.. عدنا إلى حبنا مرة أخرى كأقوى ما نكون.. ثم داهمتنا الحياة.. داهمنا الأفق البعيد الخالي من الأمل.. كان القلق يأكلني من أجلها.. وهي تعزي نفسها بوجودي على مقربة من قلبها.. حتى جاءت فكرة السفر إلى الغردقة.. لأصحو فيها على فكرة أخرى.. ريتا.. أنت.. أنت الفكرة الأخيرة التي مازلت أعيشها..

تحركت نحو الفراندة.. أطلت على الشارع.. عادت إلـى المنضدة.. أخذت علبة السجائر.. تحركت إلى الفراندة مـرة أخرى.. أشعلت السيجارة.. وقفت ساهمة.. عقدت يديها عند صدرها إلا من أصابعها القابضة على السيجارة.. كان يشاهد بروفيل وجهها الغارق في الشرود.. لاذ هو الآخر بصـمت مماثل.. كان يشغله شيء واحد.. مـا هـو السـؤال الـذي

ستطرحه عليه الآن..؟ بدأ الخوف يسري في خلاياه.. أغثني يا إلهي بالإجابة.. لقد صارحتها.. وهي الآن تحاول استيعاب هذا القدر الكبير من الصراحة.. هناك بعض الرضـا يلـوح على وجهها.. من المؤكد أنها سعيدة لأنني لم ألجأ إلى الكذب أو إلى التجميل.. الخواجات لا يحبون الكذب.. الكذب عندهم خطيئة لا تغتفر.. ربما هي الآن تتأمل صراحتي مع حنان.. وأنني لم أفاجئها بمشروعي الحريص على إفسـاح الطريـق لها.. ولكني لم أذكر لريتا قصة الخطيب الذي يطارد حنان.. أعتقد أنه ليس من المناسب أن أذكره.. من الأفضل أن أحتفظ به لنفسي على الأقل فأنا أحافظ على فرصة احتمال الغيـرة في قلبها لوجود فتاة مصرية في انتظاري..

تحركت نحوه.. وجلست بجواره.. أطفـأت سـيجارتها.. اعتدلت في مواجهته.. تمتمت:

- قصتك حزينة..

ثم لاذت بصمتٍ غير طويل.. وأشاحت بوجهها نحوه..

- هل تذكر القصيدة التي كتبتها لها..

- أجل.. أذكرها.. هل تريدين سماعها.....؟ أخشى ألا تسعفني الترجمة بحرارة الإحساس..

- لا تخشى ذلك.. يمكنني أن أضع يدي على مناطق الشعور..

ابتسم وقال لها:

- أصبحت أثق في ذلك.. فلديك قلب مرهف..

ثم راح ينشد:

مستعد وها سمعِك..

أنا مستعد وها سمعِك..

لو قلبِك اتحجج..

بأن الوقت فاتْ..

ومشيتي في السكة المتاهة..

ها رجعِك..

لجل ان نعود..

نستني في القطر اللي غايب..

من سنين..

يمكن ها ييجي.. يمكن ما فيش..

وساعتها ها رجع وأسألك..

هو احنا لازم ننتحر.. علشان نعيش..؟!

ولا قلبك المسكون..

بعفريت انتمائك..

زي بركان الألم جوايا صار..

يكتب كتابه والجموع شاهدة..

على مبادئ الانتحار..

شاركيني حيرتي ورهبتي..

وها شاركك الموت الأخير..

أشعلت سيجارة وراحت تردد:

هو احنا لازم ننتحر

علشان نعيش..؟

قالت:

- إنت شاعر رائع يا وسام..

ثم راحت تردد مرة أخرى:

شاركيني حيرتي ورهبتي..

وها شاركك الموت الأخير..

وها شاركك الموت الأخير..

- كان لابد أن تحب هذه الفتاة.. لمن كنت ستكتب هذه الأشعار لو لم تحبها..؟

خاف أن يكون سؤالها خبيثًا.. ويحتوي على سؤال آخـر محتواه: ما دمت أحببتني أنا الأخرى.. فماذا كتبت في مـن أشعار...؟

سارع فأجابها:

- أنا لا أتغنى فيها.. بقدر ما أبوح بحزني للضياع الذي يحتوينا..
- هل تريد أن تُفهمني أنك تغني للضياع...؟
- أشكو لها الضياع الذي يأخذنا.. والوقت الذي يقتلنا.. والطريق الذي لن يأتي.. وقلبها المسكون بظنون الحقيقة الغائبة.. وبركان الألم الذي في داخلنا... وهكذا...

سألته:

- نحن في الغرب نحب الأرقام والإحصائيات خاصة للموضوعات الغامضة والغريبة.. هل

حدث أن فعلتم مثل ذلك في دراسة حالات الحب الأول..؟ كم عدد زيجات الحب الأول التي نجحت...؟ وبالتالي الحالات التي فشلت.. وكم عدد الرجال الذين يفضلون الاقتران بأول حبيبة..؟ وكم عدد الذين يتمنى منهم أن يتخلص من زوجته الحالية ويعود إلى حبيبته الأولى.؟

همس لنفسه بالعربية:

- ليلتك لن تفوت على خير..

سألته:

- ماذا تقول...؟

أسرع فأجاب كاذبا:

- أحاول التذكر..

أردفت مسرورة:

- إذن فلديكم أرقام..

أجابها بسرعة:

- أرقام...؟ حكومتي نفسها لا تملك هذه الأرقام.. نحن نشك في تعداد السكان المعلن من قبل

مؤسسة التعداد.. فهل سنثق في أرقام لحالات الحب.. لا يوجد أصلاً شيء من هذا القبيل عندنا.. ربما تجدين رقما عن عدد الأرامل.. لسبب واحد.. لحساب معاشاتهم..

سألته:

- إذن ما الذي كنت تحاول أن تتذكره..؟

قال لها:

- كلمة لكاتب كبير عندنا اسمه إحسان عبد القدوس..

سألته:

- ماذا يقول...؟

أجابها:

- يقول إن في حياة كل منا وهما كبيرا اسمه الحب الأول..

سألته:

- وهل تؤمن أنت بهذه الكلمة.....؟

أجابها:

- تقريبا..

لاحقته:

- وسام...؟ أنت تكذب..

قال لها مسرعا:

- ما دمت قلت إنني أكذب.. إذن فأنا أكذب.. لأنني الليلة لا أجلس أمام زوجتي.. ولكني أجلس أمام جهاز كشف الكذب..

ابتسمت لتعليقه خفيف الدم ولكنها سـرعان مـا لملمـت ابتسامتها وعادت إلى الجدية..

- أنت مازلت تحب حنان.. وأنا لا أقبل أن تشاركني في مشاعرك إنسانة أخرى، مع احترامي لقصتك معها وتجربتك الطويلة مع مشاعرها.. والآن سأضعك أمام خيارين: إما أنا... وإما هي..

- ما هو المطلوب مني..؟ (سألها بنفس الجدية)

- أن تكون صادقًا مع مشاعرك.. لو قلت لي أنك تريد أن تنهي ارتباطنا معا، فسوف أوافقك فورا

حتى تسافر إليها.. وسوف أفهم من ذلك أنني كنت بالنسبة لك محطة عابرة، ولن أحزن قدر ما سأفرح أنك ستعود إلى حبك الأول.. أمامك أسبوع كامل حتى تقرر فيه.. سأتركك وحدك.. لدي ما يشغلني هذا الأسبوع في ترتيب مشروع الشركة.. سأرتبه بشكل يقبلني وحدي أو يقبلنا معا.. سأكون مستعدة لقبول أي قرار تصل إليه.. أيا كان هذا القرار.. نعم.. أيا كان هذا القرار..

حاول أن يتحدث وقبل أن يتفوه بكلمة كانت إشارة يـدها أسبق منه.. إشارة تقول:

- ولا كلمة!!

واتجهت إلى غرفتها التي غابت فيها قليلاً، لتخرج حاملة حقيبة صغيرة بيد.. ومعطفًا ثقيلاً باليد الأخرى.. اتجهت إليه فصافحته.. وطبعت قبلة على خده.. يوم جميل.. إلى اللقاء..

* * * * *

(١٣)

قبل أن تخطو ريتا خطواتها الأولى في الشـارع، كـان وسام قد اتخذ قراره في سبع دقائق وهو الذي حصـل مـن أجله على سبعة أيام..

قال لنفسه: أتركها تحيا هذا الأسبوع في قلق.. واتركهـا تفهم أنني أعصر نفسي عصرا لاتخاذ هذا القرار المصيري.. وعندما تعود وترى أنني اخترتها فسوف تفهم أننـي كنـت طوال هذا الأسبوع أقوم بتدمير صرح الحب الأول في قلبي حتى يظل قلبي خاليا لها.. وهنا سوف يكون لموقفي قيمتـه ولتضحيتي قيمتها..

وراح يتذكر ذلك الدرس المكثف الذي ناله الليلة على يدي ريتا.. ثم راح يتذكر بعض الأحاديث التي شارك فيها بعض الشباب الألمان على المقهى.. وكيف أفهمه واحـد مـنهم أن الفتاة الألمانية بقدر ما تميل إلى العاطفة فهي لا تنسى جانب

العقل.. الفتاة الألمانية لا تهتم بحبيبها الشاب داخـل صـالة الإنتاج بالمصنع، لأنها تصبو أن تُذكّره في نهاية الأسـبوع أنها حصلت على عائد مادي أعلى منه.. وأنها مستعدة فـي الأسبوع القادم أن تهنئه بالمبلغ الأكبر الذي حصـل عليـه، لأنها تتمنى أن يكون حبيبها منتجا أكثر منها.. ثم راح يتذكر ما قاله له شاب آخر من أن الفتاة الألمانية لم يعـد يغريهـا الشاب الوسيم فارغ العقل.. أما الرجل العادي ممتلئ العقـل والروح فهذا ما يجذبها.. وأن أغلبهن يمِلْن إلى المثقف مهما كان شكله ومهما كانت أمواله قليلة.. وبعضهن اللاتي يحببن المجون يمِلْن إلى من يقدم لهن بغيتهن من دواعي المجـون مهما كان شكله أيضا.. ومهما كانت أموالـه.. يومهـا قـال أحدهم:

- هذا النوع من الفتيات أصبح قليلاً.. وأصبحن يتناقصن مع سرعة عودتهن إلى الواقع..

راح يتذكر كيف التقى بريتا في الغردقة.. وكيف كان من الممكن أن ينتهي لقاؤهما بمجرد ابتياعها لقميص وبنطلـون من القسم الذي يديره.. تجاذبا أطراف الحديث الملـيح عنـد عملية الشراء.. كان لطيفًا معها كعادته مع الأخريات، إن لم

يكن بحكم العمل وإرضاء الزبون فهو بحكـم دماثـة خلقـه وطبيعة شخصيته.. ولكنه لم يكن يعرف أنها حفظت اسـمه من البطاقة المعلقة على صدره.. إذ سـمعها تناديـه وهـو يتجول في فترة راحته متنقلاً بين مختلف المحلات الأخـرى داخل" المول".. كانت تبتاع لوحـة فنيـة.. راح يشـاركها الانتقاء.. ولأنه يحب الفن ويتابع أخباره ويطالع تاريخه فقـد راح يحدثها عن فـان جـوخ وجوجـان وسـلفادور دالـي وبيكاسو.. يتعرف على اللوحة (المطبوعة) واسم مبـدعها قبل أن يبحثوا عن التوقيع.. كانت تراقبه بشغف وتثني على ثقافته بحب.. وتتساءل بينها وبين نفسها عن هـذا الجـامعي الوسيم الذي ينتهي به الحال في محل لبيع الملابس.. عزمته على فنجان شاي.. أخذهما الحديث.. استأذنها مسرعا ليلحق بورديته الثانية.. طلبت منه أن يلتقيا بعد الوردية.. اسـتجاب لها في هذا الميعاد.. ثم مواعيد أخرى.. وتكثفـت اللقـاءات برحلة بحرية إلى الجزيرة القريبة.. ثم برحلة أخرى داخـل غواصة الغطس.. تفجرت الضحكات على الأفواه.. وتفجرت أشياء أخرى في القلب.. وكان الزواج أسرع مـا يمكـن أن يكون.. هي التي طلبت ذلك.. عندما لم تجـد عنـده مانعـا

يمنعها أن تطالب ذلك.. فأصابعه خالية.. وقلبه خـالٍ.. وإلا فلماذا ذلك الإقبال عليها حتى لـو كـان ردا علـى إقبالهـا عليه....؟

* * * * *

ارتاح إلى قراره بالبقاء معها رغم رؤيته لصورة حنـان تتراجع إلى الجانب الرمادي في قلبه تدريجيا.. مقابل طغيان شخصية ريتا الواقعية الآسرة.. ريتا التي كان يظنها هائمة لا تتنفس إلا الحب.. ها هو يراها فجأة تمتشق سيفًا آخر أكثـر ضراوة من سيف الحب الجارح، إنه سيف العقل.. والسـير المتزن على أرض الواقع.. قرارها القاسي:

- (إما أن تكون لي بكل مشاعرك أو لا تكون..)

يبدو للرائي أنه ينم عن غلاظة وقسوة واستعداد متهـور لهدم المعبد.. ولكنه في الحقيقة ليس كذلك.. فعمق هذا القرار يحتوي على قدر هائل من الحب، حتى لو كان بـه مسـحة هائلة من التملك والاستحواذ..

هي لم ترفض قصته مع حنان، بل احترمتها.. وحزنـت من أجل نهايتها الدرامية.. ولكنها رفضت أن يكون قد جاءها وفي قلبه بقايا هذه القصة.. أو أن يكون قد أتى لهـا وفـي

وجدانه بعض الجمرات التي لم تنطفـئ والتـي يمكنهـا أن تتأجج من جديد لو مرت عليها نفخة هواء عابرة..

لماذا لا تكون ريتا بعقلها الراجح وذكائها المذهل اختارت الوقت المناسب لتضرب ضربتها وفي نيتها أن تنقذه هو من نفسه بالدرجة الأولى قبل أن تنقذ حبها له..؟

هي لم تركز على الجانب المادي في علاقتهمـا ولكنهـا لخصت كل المستقبل الذي ينتظرهما في جملة واحدة:

- (سأرتب مشروع الشركة بشكل يقبلني وحدي أو يقبلنا معا)

إذن فهي تملك أحد خيارين.. مثلمـا يملـك هـو أحـد خيارين.. والجملة لا تعدو أن تكون جملة خبرية.. ولا يمكن أن ترى فيها التهديد بشكل سافر.. ولكنك إذا أردت العثـور على هذا التهديد في ثنايا الجملة فسوف تقابله فورا..

لم يكن يعلم أن ريتا تمتلك هذا العقل القنبلة.. فما رسـمه لها طوال الفترة الماضية من صور هائمـة فـي سـماوات الشفافية والغرام لم تكن سوى رجع الصدى لطرقـة اللقـاء الأول الذي رآها فيه ملاكًا يجذبه ليجلس بجوارها على متن السحاب..

لم تكن تستخدم حسابات العقل وحوارات الموضوعية في تعاملاتها وكأنها كانت تؤجل ذلك إلى وقت آخر.. وها هـي - دفعة واحدة - تلجأ إلى هذا الموقف الموضـوعي لتضـع حدا لهواجس كانت تعيشها ولا تفصح عنها ولتساؤلات كانت تلح عليها وتشغلها ولكنها تعمـدت تأجيلهـا إلـى الوقـت المناسب..

لقد قضى وسام أسبوعه المهلة متنقلاً بين المقاهي التـي يحبها ومتنقلاً بين أرجاء نفسه ويتساءل: هل كانت استجابته لاختيار ريتا عوضا عن حنان ستتأثر فيما لو كانـت ريتـا طرحت عليه هذا الخيار وهما في مصر.....؟

قال لنفسه: من المؤكد أنها لاعبته على أرضها.. ظنا منها أن الأرض ستكون في صالحها.. ثم عاد فأكد لنفسه أيضـا: هي مخطئة.. لقد خسرت ما كان يمكن أن يؤكد لها إيجابيـة اختياري فيما لو كانت أعلنت مكان الخيار في أرض مصر.. فمأزقي هنا هو نفسه مأزقي في مصر.. إذ أنني مازلت غير جدير بتهيئة الحياة الكريمة لحنان.. وأن ما كنت أصبو إليـه من إفساح الطريق لها حتى تتحرك في حياتها بحريـة قـد

حدث بوصول السعيد عبد الباري الذي من المؤكد أنه سيجذبها إلى مشروعه الملح بالزواج منها..

عاد فتذكر أنه دون أن يخطط لذلك اتخذ جانب العقل والموضوعية وهو يحدد طريقه مع حنان.. واستغرب أن يتوافق ذلك مع ما اتجهت إليه ريتا في اتخاذ نفس الجانب وهي تحدد طريقه معها.. كما وجد نفسه منهمكًا – بما لديه من اتساع في الوقت – في تأمل نوع ما تتمسك به حنان من مبادئ.. ويقارنها بمبادئ ريتا.. فوجد أن حنان شخصية مغرقة في الرومانسية بلا ضوابط..وأن ريتا شخصية عاطفية تحكمها كثير من الضوابط.. وعندما حاول أن يعزي ذلك إلى طبيعة الروح الشرقية مقارنة بروح الغرب.. أو بمجموع ما أنتجه المنتج الثقافي الشرقي بمثيله في الغرب اكتشف أن هذا التبرير يحمل في داخله ما يكفي لنسفه، إذ تذكر أن شخصية أمينة إبراهيم وهي شاعرة حالمة وصديقة لحنان تتسم بالواقعية ومعالجة الأمور بنوع من الثورة على الموروثات التي لا تعجبها، دون خجل من أن تفعل ذلك.. وهي شخصية تقترب من شخصية ريتا.. إذن فاتهام روح الشرق وثقافته ومعطياته كسبب لجنوح حنان إلى التحليق

بعيدا عن الواقع لا يعتبر إتهاما في محله.. وإذن فما تعيشـه حنان من هيام معذّب.. أو عذاب هائم.. بسبب إفراطها فـي الرومانسية شيء أتى من داخلها ولا ذنب لأحد فيه..

ثم راح يبحث في داخله عن قرار الدقائق السـبع الـذي اتخذه باختيار ريتا دون حنان.. ولماذا كان هذا القرار سريعا إلى هذه الدرجة..؟

هل لأن ريتا وضعته أمام اختيار صعب..؟

أم لأن حنان هي التـي وضـعته أمـام هـذا الاختيـار الصعب..؟

أم لأن وضعه الشخصي بينهما هـو الـذي خلـق هـذه الصعوبة..؟

لقد رأى نفسه أنه في جميع الأحوال محاصـرا يريـد أن يلوذ بالفرار.. ولم يجد مكانًا يلوذ فيه بهذا الفرار سـوى أن يفر إلى واقعه الذي يعيش فيه..

في اليوم الأخير من الأسبوع المهلة هاتفته ريتا فسألها:

- من أين تتحدثين.؟

- من فرانكفورت.. أنا الليلة في طريقي إليك..

- اشتقت إليك يا ريتا..
- وأنا أيضا..
- لماذا لم تحدثيني طوال هذا الأسبوع.؟
- اخترت ذلك حتى لا أؤثر على قرارك، خاصة وأن حنان لا يمكنها أن تتمتع بمثل هذه المكالمة..
- أنت هكذا تعاملينني كما لو كنت قاضيا..
- أنت كذلك فعلاً..
- ما دام الأمر هكذا فأنا جاهز لإصدار الحكم..
- وأنا جاهزة لسماعه..
- حكمت المحكمة على الفتاة الألمانية الجميلة ريتا بالسجن مدى الحياة بمنزل زوجها الشاب المصري وسام، الذي أقسم أن يشاركها هذا السجن الجميل بكل الحب، حتى آخر يوم في حياتهما، وأن يعاملها المعاملة الحسنة، وألا يخونها وأن يحرص عليها وعلى أموالها، وأن يعمل على راحتها بكل جوارحه.. وألا تشاركه في مشاعره الجميلة نحوها أية إنسانة أخرى..

أتته ضحكتها المرحة عبر التليفون..

- إنه حكم رائع وخفيف الدم.. ولكنك حكمت على نفسك.. ولم تحكم علي..!!!!

- لقد حكمتُ علينا... معا..

تمتمت:

- صحيح.. حياتنا المقبلة مسئولية مشتركة..

ثم صمتت لحظات قبل أن تسأله:

- **لو طلبت منك أن تكتب خطابا إ حنان.. كم يستغرق منك من الوقت...؟**

- ولماذا أكتب إلى حنان.. أقصد.. ماذا أكتب لها...؟

- تكتب لها قصة هذا الأسبوع الأخير.. وتنهيه بسرد هذا الحكم الذي نطقته الآن..

- ألا ترين أن هذا الأمر قاسٍ..؟

- لكن الأقسى منه أن تتركها تطارد أملاً أنت لا تملك القدرة على تحقيقه.. والأشد قسوة أن تتركني نهبا لهواجس الغموض والخوف..

صمت طويلاً.. وراح يتمتم:

- إنها مفاجأة..

لاحقته:

- وأين المفاجأة وقد أمهلتك أسبوعا...؟ هل كنت تحفظ صيغة هذا الحكم طوال هذا الأسبوع..؟ مادمت قد قلت هذا الحكم بسهولة فيجب أن تنفذه بنفس السهولة.. أم أنك قررت أن ترضيني ببعض الكلمات..؟
- لا.. لا.. لا يمكن أن أفكر في ذلك.. لست أنت يا ريتا التي يمكن أن أعاملها بشكل مسطح.. عموما، لقد فهمت مطلبك.. وسوف أنفذه.. ولكني بحاجة إلى الوقت الكافي لإراحة أعصابي وأنا أكتب هذا الخطاب.. أنا واثق أنك ستتفهمين ذلك..
- أجل.. أجل.. يمكنك إذن أن تكتبه بعد حضوري..
- ريتا...؟
- نعم..

- من المؤكد أن حنان تعيش على أمل ـ لا أنكر أنه أمل باهت – أن أعود إليها.. ولذا فإن الأهم من الخطاب هو طريقة استلامها له.. لا أريد أن أذبحها..

- لا تؤكد لي أنك مازلت تحبها..

- الرحمة جزء يسير من الحب.. من القسوة أن أحجبها عنها..

- تقصد الشفقة..؟

- سمها ما شئتِ.. ولكن يجب أن أكون إنسانًا..

- هذا أجمل ما فيك.. عموما لقد رتبت كل شيء مع فتحي شمس الدين الذي سيتناول الخطاب ويذهب إليها بنفسه.. في حضور والدتها.. ومعه بعض الهدايا التذكارية مني.. ومنك..

* * * * *

(١٤)

كان الخوف يتملكها وهي تحس بعوامل التمزق تمتد إلـى نفسها.. فهي لم تندم لأنها أحجمـت عـن اسـتلام خطـاب السعيد.. ولكنها أحست بألم شديد من أجل السـعيد نفسـه.. قالت إنه لم يكن لها أن تندم عندما تركت الخطاب لأنها لـم تجد في نفسها بعض ما يشجعها على اسـتلامه ومـن ثـم قراءته.. وحتى لو كانت مصابة بمرض الفضـول أو حـب التسلية فقد كانت ستربأ بنفسها ألا تفعـل ذلـك.. احترامـا لمشاعر الرجل الذي يقف بعيدا عن مشارف الأمل متخـيلاً إنها تأكل حروف خطابه بعينيها وقلبها وكل مشاعرها..

كانت الصداقة التي تربطها بأمها هي الباب النبيل للولوج إلى البوح الهادئ.. ولأن أمها تعرفها حق المعرفة وتحتـرم مشاعرها أشد الاحترام فهي لم تحاول ذات مرة أن تثنيها عن عزم عقدت حوله النية.. أو حتـى عـن ضـعف أحاطتـه

بالاستسلام.. ولكنها هذه المرة وأمام عرض الزواج الباهر لصاحبه الشاعر السعيد عبد الباري.. راحت الأم تتسلل بنعومة إلى عقل ابنتها وليس إلى عاطفتها مستخدمة الوسائل التي لا يبدو فيها أنها تتحيز إلى الكفاءة المادية في عرض السعيد قدر ما تتحيز إلى كونه شخصية شاعرة سيكون أنسب الناس للاقتراب من شخصيتها الشاعرة.. وأن الفتاة العاقلة هي التي تختار من الرجال من يحبها أكثر حتى لو كانت هي تحبه أقل.. ثم راحت الأم تصارحها بأن وساما قد اختار طريقه.. وأنه لم يخدعها بل صارحها بمشروعه أن يخلي لها طريقها وأنه حاول ذلك قبل أن يقترن بالفتاة الألمانية.. ثم صارحتها بأن ما يعتمل في داخلها من حزن ليس مرده إلى شيء سوى الشعور بأن وساما لم يحرص على مشاعرها وكرامتها.. وأنها في انتظاره ليس للزواج منه قدر انتظارها اللحظة المناسبة لاسترداد كرامتها..

وفي اللحظة المناسبة التي أحست فيها الأم أن اللين أخذ طريقه إلى عقل ابنتها، وأن مسام قلبها راحت تتفتح لاستقبال ما تطرحه الأم من رأي متعقل..

قالت لها الأم:

- - لماذا لا تحضرين خطابك من فريد وتقرئينه ربما تجدين فيه ما يشجعك أن تفكري بشكل جيد..؟

ثم قالت لها زيادة في التشجيع:

- افتحيه بحرص واطلعي على ما فيه، وإن كان لك رأي آخر أعيدي تسليمه لفريد، وكأنك لم تتسلميه من الأصل..

قالت لها:

- لا يا أمي هذه طريقة لا يفعلها حتى الناس البلدي..

دافعت الأم عن نفسها:

- وماذا أفعل يا ابنتي..؟ أريد مصلحتك وأريد عدم إحراجك.. أنا في نار.. ماذا أفعل..؟

قالت لها:

- لا تقلقي.. خلاص.. سأطلب الخطاب من فريد..

اندفعت الأم فجأة نحو ابنتها ولثمتها علـى خـدها بقبلـة حنونة.. وكأنها تقول لها تلك هي تهنئتي لك إذْ عـاد إليـك عقلك.. فما كان من حنان إلا أن ألقت إليها ابتسامة حـائرة وهي تهز رأسها في أسى..

لكن من أين لحنان بتلك الشجاعة التـي جعلتهـا تطلـب خطابها من فريد بشكل مباشر.. رأت أن تنتظر أقرب لقـاء يجمعهما في النادي الأدبي ومن الطبيعي أن تأخذهما الثرثرة إلى شاطئ السعيد عبد الباري.. وهنـا يمكنهـا أن تطلـب الخطاب بشكل مناسب.. ولأن فريد لم يمهله وقته لحضـور الندوة بانتظام لعدة أسابيع فقد سحبتها أقدامها للمرور من أمام محله المتواضع.. فنادى عليها بمرح، وحاول أن تقبل دعوته على مشروب إلا أنها جفلت عندما شاهدت بالداخل عددا من الشباب، فاعتذرت ومضت في طريقها والغيظ يأكلها.. ولمـا لم يحضر الندوة التالية قررت أن تكـرر رحلتهـا المفتعلـة للمرور من أمام محل فريد، وكان الجو مناسبا هذه المرة أن تدخل وتسأله عن سر تغيبه عن الندوات، لتكتشف أنه لـيس مشغولاً بالعمل قدر ما أصبح زاهدا في اللقـاءات الأدبيـة، ومتأملاً لماهية الشعر ودور الشعراء، وأن الشعر لـم يعـد

سوى صوت ضائع في خلاء اللامبالاة، وأن الشعراء لم يعد لديهم القدرة على الاهتداء إلى طـريقهم، مـا بـالهم وهـم يحاولون أن ينيروا للوطن طريقه..

كانت ترفع كوب العصير إلى فمها عندما قال لها:

- كم كان السعيد مقهورا وهو يطلب مني إعادة خطابك إليه لأنك لم تتسلميه..

كاد الكوب أن يسقط من يدها وهي تسأله:

- وأرسلته..؟

أجابها بلا اكتراث وهو يعالج بروازا مائلاً على الحائط:

- منذ أسبوع..

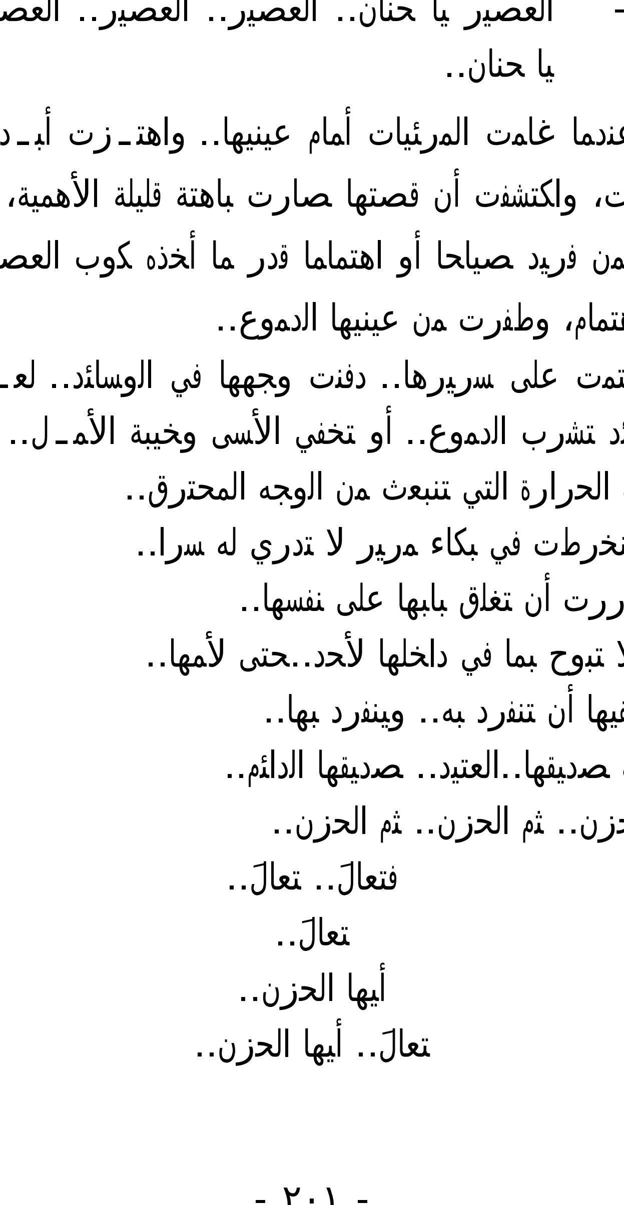
وراح يواصل التعليق وقد أدار لها ظهره..

- كان صوته حزينًا مليئًا بالأسى وخيبة الأمل..

وضعت الكوب على ا نضدة.. و ضت واقفة وهي تردد بلا وعي:

- لا شيء يستحق الحزن والأسى وخيبة الأمل.. عن إذنك يا فريد..

ثم خرجت مندفعة من المحل.. وهي لا تسمع إلا الشـيء الذي كان يثير اهتمام فريد وراح يناديها من أجله:



- العصير يا حنان.. العصير.. العصير.. العصير يا حنان..

وعندما غامت المرئيات أمام عينيها.. واهتـزت أبـدان البنايات، واكتشفت أن قصتها صارت باهتة قليلة الأهمية، لم تأخذ من فريد صياحا أو اهتماما قدر ما أخذه كوب العصير من اهتمام، وطفرت من عينيها الدموع..

ارتمت على سريرها.. دفنت وجهها في الوسائد.. لعـل الوسائد تشرب الدموع.. أو تخفي الأسى وخيبة الأمـل.. أو تخفف الحرارة التي تنبعث من الوجه المحترق..

وانخرطت في بكاء مرير لا تدري له سرا..

وقررت أن تغلق بابها على نفسها..

ولا تبوح بما في داخلها لأحد..حتى لأمها..

يكفيها أن تنفرد به.. وينفرد بها..

إنه صديقها..العتيد.. صديقها الدائم..

الحزن.. ثم الحزن.. ثم الحزن..

فتعالَ.. تعالَ..

تعالَ..

أيها الحزن..

تعالَ.. أيها الحزن..